الفصل الرابع

الخليفةُ والقُدوَة

[إنما أُعطيكم ما تُرزَءون لا ما
تَرْزَءون . . .]

« الرسول »

obeikandl.com

obeikandl.com

كلما تعاظمت مسئوليــاته ، تألقت فضائله ومزاياه .

وتلك أصدق دلائل العظمة الإنسانية ، وأوثق براهينها . .

فحيث تثقل المسئوليــات كالجبال . . وحيث تفرض خلال احتدامها وجيشانها توتُّراً قاسياً على الإرادة والفكر ، تجد الفضائل الطارئة فرصتها للانكماش والتقهقر . أما الفضائل الأصيلة الجليلة فلا شيء يشحَذُ تفوقها وأقتدارها مثل هذا المجال ! !

* * *

ولقد كُتب على « ابن أبي طالب » أن تكون حياته موكباً موصولاً من المسئوليات الجسام .

أكانت أقداره تُحابيه بهذا ؛ لتجعل حياته عرضاً مستمرًّا لفضائله المتألقة ، وعظمته السامقة . . ؟

إن إحساسه ، وإن إيمانه بالمسئولية لعجيبان !

ولكن العجب يفقد مكانه ، مادامت الأقدار قد جعلت منه ابن

عمَّ الرسول وصهره وتلميذه الأول . .

فمن يَكُ مكانه من الرسول هذا المكان ، فإن عليه أن يُعطى ، ولا يأخذ . . وأن يَغْرم ، ولا يَغْنَم . .

عليه أن يهيئ نفسه لِشظفِ العيش ، ولأْواء الحياة . .

أما مناعمها ، ومباهجُها ، بل مجُرد الراحة فيها ، فأشياء لا تنبغى لمحمد ، ولا لآل محمد . . ! !

تلك قضية وعاها « على » جيداً ، فيما وعى . .

وابنُ عم الرسول وتلميذه ، خير من يضع إرادته وسلوكه فى خدمة الحق الذى يَعيه .

إنه بغير تكلُّف ، وبغير إعمال أومحاولَة . يجد طاقاته جميعاً تبلغ أوْج احتشادها واكتمالها ، كلما بلغت الأخطار والتبعات ذروة تجمُّعها وتحدِّياتها .

وإنه بغير تكلف ، وبغير إعمال أومحاولة كذلك ، يجد فضائله جميعاً تحلِّق فى ذُرى جلالها وسموها عند الخطر ؛ لترسم لمقدرته ولبطولته أسلوب العمل ! !

هكذا تعلم من « محمد » ابن عمه وكافِله . .

وهكذا تعلم من « الرسول » مُعلِّمه وهاديه . .

فلقد رآه عندما بلغ الخطر به وبعمه أبى طالب ، غايته الماحقة ، تتقدم فضيلة الصُّمود فى جلالها المهيب فتقهر الخطر ، وتعبر عن نفسها فى هذه الكلمات :

[واللهِ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى

والقمر فى يسارى ، ما تركتُ هذا
الأمر حتى يظهره الله أو أهلِك دُونه] . .

ثم رآه يوم الفتح ، وقد تعلّقت مصاير قريش كلها بكلمة واحدة تنفرج عنها ثناياه ، فإذا فضيلة الصَّفح تتقدم فى أنْسها الرَّحيب وحنانها الرَّطيب ، لتقول للقتلة الذين جوَّعوا أهله ، وقتلوا أصحابه ، ومضغوا كَبِد عمه بعد أن مثَّلوا بجثمانه الطهور أبشع تمثيل .

[اذهبوا ،
فأنْتُمُ الطُّلَقَاء] . ! ! !

* * *

ليس هناك خطر مهما عَظُم ، يستطيع أن يُقاعِس الفضائل الرفيعة عن دَوْرها فى توجيه الكفاية والبطولة .

وليس هناك فى كل مفاتن الدنيا ما يستطيع أن يفتن الرجل العظيم العادل عن مسئولياته العظيمة العادلة . .

هذا هو الدرس الذى حَذِقَه « على » عن الرسول ووعاه . .

يُضاف إليه ، بوصفه من آل بيت الرسول ما ذكرنا من قبل وهو : أن يُباشر مسئولياته ، ويحيا جميع حياته وسط دائرة صارمة من الزهادة ، والشظَف . .

ليس له فى طيباتها المشروعة ، ولا فى مناعمها الحلال حظ أو نصيب ! !

عرف ذلك من قول الرسول ومن عمله وسلوكه معرفة لا تحتاج إلى مَزيد .

obeikandi.com

عرفه حين كان يراه يضنُّ على نفسه بشربة لبن . . ثم يرسلها لفقير من المسلمين . . !

وعرفه ، يوم أرسل إليه زوجته « فاطمة » بنت الرسول تسأله حقاً يسيراً ناله جميع المسلمين ، فإذا هو يجيبها ودموع الوالد الحنون تملأ عينيه :

[لا ، يافاطمة . .
لا أُعطيكِ وأدعُ فقراء المسلمين] !

وعرفه ، حين رأى عمه « العباس » يسأل الرسول ولاية ، هُو لها أهل وبها جدير ؛ فإذا الرسول يجيبه فى أسف :

[إنّا والله يا عَمٍّ ، لا نُولّ هــذا
الأمر أحداً يسأله ، أوأحداً يحرص
عليه] ! !

وعرفه أكثر وأكثر ، يوم فتح مكَّة ، حين حمل « علىٌّ » مفتاح الكعبة ، وتوجه تلقاء الرسول وهو جالس وسط أصحابه فى المسجد الحرام وقاله له :

[يا رسول الله . .
اجعل لنا الحجابة مع السّقاية صلى
اللهُ عليك] .

فإذا الرسول يبسط إليه يمَينه ، ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادى : (أين عثمان بن طلحة) ؟ . . وكانت وظيفة حجابة البيت الحرام معه ومع أسرته من قبل . .

حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائماً ، أدْناه الرسول منه ، ووضع

مفتاح الكعبة فى يده وقال له :

[هَاكَ مفتاحَك يا عثمان اليوم يوم
بِرٍّ ووفاء . . ! !]

ثم يلتفت صوب ابن عمه عَلِىّ ويقول له :

[إنما أُعْطِيكم ما تُرْزَءُون لا ما
تَرزَءُون] . . ! !

أى أن حظكم فى هذه الحياة الدنيا ، المسئولية مع الشَّظَف . . لا شىء دون ذلك ، ولا شىء فوق ذلك . .

أما بقيَّة الدنيا ، من منصب ، أوجاه ، أومال فلا ينبغى لكم أن تُنافسوا فى شىء من ذلك أحداً ، ولا أن تَرْزَءُوا فيه مخلوقاً ! !

هل هناك حاجة إلى مزيد من البيان لكى يعرف « على » طبيعة وحقيقة دوره فى الحياة . . !

لا . .

وإن القضية لواضحة كالنّهار .

وتلك هى :

[إنما أُعطِيكم ما تَرْزَءُون لا
ما تَـرْزَءُون] . . ! !

عليه – إذن – أن يحمل مسئولياته كلها فوق كاهله الشجاع ، ويمضى . .

وعليه – إذن ، ألا ينتظر من الدنيا جزاءً ولا ينتظر منها شكوراً . .

فليس لآل محمد فيها سوى أن يُعطوا . . أما أن يأخذوا فلا . .

إن الدنيا لأهْوَنُ على الله من أن تكون لهم مثوبةً وجزاء . .

وليس هناك من آل بيت النبي من أدرك هذه الحقيقة وآمن بها مثل الإمام على . .

بل لقد أدرك أيضاً ، أن طيبات الحياة التى يجد فيها الآخرون أفراحاً ومسرَّات . . تتحوَّل حين تلقيها المقادير على آل البيت إلى رُزْءٍ ومشقة ! !

ذلك لأنهم لا يبحثون خلال هذه الطيبات عن المنفعة والمُتْعة ، بل عن الواجب والتَّبعة .

ومن آل البيت كذلك ، لانجد أحداً يفوق « علياً » رضى الله عنه فى السير بحياته وفَق هذا الإدراك . .

فحين جاءته الخلافة . . خلافَةُ أعظم دول الأرض يومئذ نفوذاً وسيادة . . كانت هذه الخلافة التى يسيل لِتَبوُّئها لُعاب الملوك ، رُزْءًا أصاب الإمام . .

ولو شاء لجعلها مصدر نعيم لا ينتهى ، ومسرَّات لا تسكت طبولها . .

ولكن ، لأنها تحوَّلت بين يديه إلى مسئولية يُمارسها ضمير بلغ الكمال فى ورعه ، واستقامته ، وفى تقواه وصرامته . . آنئذ لم تعد الخلافة مع « الإمام العظيم » أكثر من رُزء ، يحمله فى جَلَد الصابرين الغارمين . . لا فى نشوة الفرحين الغانمين . . ! !

* * *

إن المسئولية وحدها هى التى تعنيه . .

وموضوع المسئولية - أيَّة مسئولية - هو الحق ، ولاشيء سواه . .

فإذا رأى الحق ، حمل مسئوليته عنه من فوره ، وإذا حمل مسئولية ما ،

فإن العواقب لا تدخل فى حسابه أبداً . .

* * *

وهذا يفسر لنا موقفه من الخلافة ، منذ انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى – إلى أن لحق هو بهذا الرفيق .

فعندما بويع « الصديق أبو بكر » رضى الله عنه بالخلافة استأخَرت يمين « الإمام على » كرم الله وجهه عن البيعة . .

لماذا . . ؟

لقد أعطى هو السبب فى وضوح خلال حواره مع الصحابة ، وعَلى رأسهم أبو بكر وعمر فقال :

[إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه
ومقامهم فى الناس ، وتنكرون عليهم
حقهم .
أمَا والله لنحنُ أحق منكم بالأمر
مادام فينا القارئ لكتاب الله . .
الفقيه فى دين الله . . العالم بسنن
رسول الله . . المضطلع بأمر الرعية . .
القاسم بينهم بالسويّة] . .

فهو – إذن – يرى ، بل يعتقد أنه ما دام الرسول عليه السلام لم يعهد بالخلافة لأحد بذاته ، فإن البيت الذى اختارته السماء ليكون منه النبي المصطفى ، هو البيت الذى يختار منه المسلمون خليفتهم ، مادام فى رجال هذا البيت من يتمتع بالكفاية الكاملة لشغل منصب الخلافة .

أجل ، فليس الانتماء لبيت النبوة هو وحده مبرر هذا الترشيح . بل لا بد قبل ذلك من الكفاءةِ الكاملة التى تتمثل فى الطاعة المطلقة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، وفى الاضطلاع القويم بأمر المسلمين . .

هكذا قال الإمام :

[. . ما دام فينا القارئ لكتاب الله
« الفقيه فى دين الله . .
« العالم بسنن رسول الله . .
« المضطلع بأمر الرعية . .
« القاسم بينهم بالسّويّة . .]

* * *

ولسنا هنا بصدد مناقشة رأى « الإمام » فى خلافة « الصِّديق » رضى الله عنهما .

ولكننا نقرر عن يقين . أن الإمام فى موقفه ذاك لم يكن مدفوعاً برغبته الشخصية فى منصب الخلافة ، ولم يكن ينفس على « أبى بكر » هذا المنصب .

إنما كان يدافع عن حق رآه واعتقده . . ولم يكن بالنسبة له موضع ريب أوشك .

فعندما اجتمع المسلمون فى « سقيفة بنى ساعدة » ، ورأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم . . فى حين رأى المهاجرون أنهم أحق وأولى . كان بعض منطق المهاجرين الذى رجَّح كفتهم . قولهم للأنصار : إن رسول الله كان منا نحن المهاجرين . فلتبق الخلافة فى أهل الهجرة !

obeikandi.com

فهذه الحجة نفسها كانت بعض منطق الإمام . .

فإذا استحق المهاجرون منصب الخلافة ، لأن الرسول منهم . . فآل بيت النبي أحق بها ، لأن النبي منهم . هكذا فكّر الإمام . .

ولكن من الخير لنا ألاّ يفتننا الشكل الخارجي لهذا الخلاف عن جوهره وحقيقته .

فأصحاب النبي الكبار بإيمانهم وبتقواهم من أمثال أبي بكر ، وعمر ، وعلى وعثمان ، لا يتنافسون مغنماً من مغانم الدنيا مهما عظُم ، لا سيّما فى ذلك الوقت حيث كانت فجيعتهم بموت نبيهم لا تترك فى أنفسهم المفعمة بالأسى مكاناً لأىٍّ من رغبات الحياة . .

وإنما يرجع استمساك كل منهم بموقفه إلى أن كلا منهم وقف إلى جانب اقتناعه ، وما اعتقد أنه الحق . .

ثم إن الخلافة ، وإن تكن فى شكلها الخارجى تشكل سلطة سياسة ، ومنصباً دنيوياً ، إلا أنها فى أفئدتهم وفى إدراكهم الحقيق لها ، لم تكن سوى وظيفة من أسمى وظائف الهداية ، والقُدوة . . وفى مثل هذا لا جَرَم أن يتنافس المتنافسون . .

إن كل وقائع التاريخ وحقائقه تؤكد فى غير لبس أن أبا بكر ، وعمر ، وعلى – هؤلاء الثلاثة بالذات ، لم يكونوا يرون فى منصب الخلافة سوى عبء فادح مُبْهِظ ، ولولا أن الهروب منه خيانة لله ولرسوله وللمسلمين ، لجعلوا بينهم وبينه بُعد المشرقَيْنْ . .

فلا الطموح الشخصى ولا الرغبة فى النفوذ والسلطة ، كان لهما أو لإحدهما مكان بين دوافع ذلك الخلاف .

كان ألفريق الذى آثر اختيار أبى بكر ، ينظر إلى سابقته فى الإسلام ، وإلى سنّه وحكمته وخبرته ، وإلى ذلك الإيمان المعجز الذى حمله قلبُ رجل جعل شعار حياته كلها مع رسول الله :

[إنْ كان قال ، فقد صَدَق] ! !

كانت المزايا التى تدعوها لاختيار « أبى بكر » تملأ الأفق أَلَقاً ، ومجداً ، وعبيراً . .

وهى مزايا لم ينكرها « الإمام العظيم على » لحظةً من نهار .

ولقد جهَر بها ، وهو يُبايع « الصِّديق » فيما بعد فقال :

[يا أبا بكر . .

« إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكار لفضلك ، ولا نفاسةٌ عليك لخير ساقه الله إليك . .

ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقاً أخذتموه] .

كما عبرَّ عن هذه المزايا تعبيراً أجمع وأروع حين وقف يرثى «أبا بكر» بعد وفاته ، فيقول :

[رَحِمكَ الله أبا بكر . .

« كُنتَ والله أوّل القوم إسلاماً . .

« وأخلَصَهم إيماناً . .

« وأشدَّهم يقيناً . .

« صدَّقتَ رسول الله حين كذبه الناس

« وواسَيْتَه حين بخلوا . .
« وقمت معه حين قعدوا . .
« كنت والله للإسلام حِصْناً ،
« وللكافرين ناكِباً . .
« لم تَهِنْ حجَّتُك . .
« ولم تضعُف بصيرتُك . .
« ولم تَجْبن نفسك . .
« كنت والله كما قال الرسول فيك .
« ضعيفاً فى بدَنك . .
« قوياً فى دينك . .
« متواضعاً فى نفسك . .
« فلا حَرمنا الله أجْرَك . .
« ولا أضلَّنا بعدك » . . ! !

أجل ، كان الرجلان اللذان تحرَّك بينهما « بندول » الاختيار بُعيد وفاة الرسول من طراز رفيع ، رفيع ، رفيع . .

وكان الرجل الثالث الذى لعب الدور الأول فى اختيار أبى بكر فى نفس المقام من الرفعة والعظمة . .

ويكفى أن يُذكر اسمُ أىٍّ منهم « أبو بكر » أو « عمر » . . أو « على » . . حتى تتفتح الأبواب عن عالم من الفضائل والرفعة والتُّقى ، ليس له نظير ! !

ولقد سعى « أبو سفيان » إلى « الإمام على » أكثر من مرة يحضه على الاستمساك بحقه فى الخلافة ويقول :

– إن شئتَ لأملأنّها عليهم خيلاً ورجلاً ، ولأسدَّنّها عليهم من أقطارها .

ولكن الإمام الزاهد ، الورِع ، الفاهم ، يردّه فى كل مرة ويَدْحَضُه :

[يا أبا حَنْظَلة . .
إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا
ولا من شِيَمنا . .
ولقد سددتُ دونها باباً ، وطويت
عنها كَشْحاً] .

* * *

أجَل . . فاختلاف وجهات نظر الأبرار حول الحق . لا يُخرج الأبرار من دائرة الحق ، والفضل ، والأمانة . .

إن خلافهم ليس على دنيا يتنافسونها ، ومن ثمَّ تبقى آفات الدنيا بعيدة عن إيمانهم وعن أخلاقهم ، وتبقى بعيدة عما يختلفون فيه ، بُعدها عما يتفقون عليه . ! !

وهكذا طوى – الإمام – عنها كَشحاً ، وأغلَق دونها باباً ، وتفرَّغ لعبادة الله وتفقيه المسلمين ، وإسداء المشورة والنصح لولىِّ الأمر . .

فالمشكلات كلها ، والمعضلات جميعها لم يكن لها إلاَّ علىّ . .

ولطالما كان الخليفة « أبو بكر » يسعى إليه ويقول له :

[أفْتِنَا يا أبا الحسن] . . ! !

ولطالما كان الخليفة « عمر » يستنجد بفقهه وبذكائه وببصيرته ، ثم يقول :

[لولا عَلىٌّ ، لهَلَكَ عُمر] . . ! !

ولطالما كان الخليفة « عثمان » يَأرِزُ إليه ، ويستعين به ويستنصحه ، لكنْ عندما أوْغلَت الحاشية المحيطة به فى الأمر ، استطاعت للأسف أن تفسد ذات بينهما ، فلم يُقدَّر لنصح الإمام ولمشوراته الأمينة العادلة أن تبلغ من اهتمام الخليفة ما تستحقه .

وباستشهاد الخليفة « عثمان » دُعى « الإمام على » ليتسلم الرُّزْءَ الكبير – منصب الخلافة . . ! !

وهكذا جاءته أخيراً . . مُثخنةً بالجراح ، مُثقلة بالمتاعب ، معبَّأةً بالعواصف . . ! !

حقاً ، إن « آل محمد » ليس لهم من حظوظ الدنيا إلا ما يُرزَءُون ! !

* * *

فى أواخر عهد « عثمان » رضى الله عنه ، لعبت أهواء نفر من بنى أمية بمصاير الدولة وبمقاديرها لَعِباً أفضى آخر الأمر إلى فتنة مسلحة تنادى لها أصحابها من شتىَّ أقطار الإسلام ، واستغلها على نطاق واسع أعداء الدين الجديد الذين هدّم عالَمهم القديم كله ، وقضى على مصالحهم وضلالهم . .

وبلغت الفتنة فى جولتها الأولى غاية احتدامها وظلامها بمقتل الخليفة « عثمان » .

ولسنا الآن بصدد الحديث عن وقائع تلك الأحداث الرهيبة فسيكون مجال ذلك فى كتابنا القادم إن شاء الله عن « عثمان » رضى الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين .

أما هُنا ، فسنكتفى برؤية الظروف الحالكة التى حمل فيها

obeikandl.com

« أمير المؤمنين على » كرم الله وجهه تبعة الحكم ، ومسئولية الخلافة . .

لقد قصده الثوار إثْر فراغهم من اقتراف جريمتهم النكراء .

قصدوه وأيديهم لم يجفّ منها دم الخليفة الشهيد الذى اغتالوه فى بشاعة مفزعة .

ورفض « الإمام » بعد أن ألقى عليهم من تقريعه ووعيده ما جعلهم وهم فى بأسهم المتقد يتقامئون ، ويتخاذلون ، وينصرفون عنه فى خزى وهوان . !

ذهبوا إلى « طلحة » فرفض . وإلى « الزُّبيْر » فرفض . . وإلى « عبد الله ابن عمر » فرفض وإلى « سعد بن أبى وقاص » فرفض . .

ومن ذا الذى يقبلها ، وقد رفضها الإمام على ؟

والحق أن رفض « على » لها هو الذى حتّم عليه آخر الأمر قبولها . .

ذلك أنه برفضه هذا ، ذاد عنها كل الرجال حتى الطامعين فيها . . ولم يجرؤ أحد ، وقد رأوا « بن أبى طالب » يرفضها احتجاجاً على اغتيال الخليفة الشرعى « عثمان » نقول : لم يجرؤ أحد أن يتقدم منها أو يتلقّ مسئوليتها . .

ولكن لابد للدولة من حاكم وخليفة ، وكل دقيقة تمر والمكان شاغر ، تشكل خطراً قد يودى بمصير الأمة كلها والإسلام كله .

ولقد أدرك ذلك سريعاً جميع الناس بالمدينة — أهلَها . . والثوار الطارئون عليها . . الساخطون على مقتل « عثمان » والمشتركون فيه . .

كلهم أدركوا الخطر الماحق المزلزل الذى سيحل الأمة فى أقطارها القريبة والنائية إذا لم يمسك بالزمام على الفور ، رجل مقتدر يستطيع أن

يقف جموح الفتنة ، ويرأب ذلك الصَّدْعَ العريض . .

وهكذا عاد « الثوار » إلى الإمام يُلحّون ويرجون . .

وقَبْل الثوار ، تقدم الراشدون من أهل المدينة يبايعون « علياً » على الخلافة .

وبهذه البيعة التى كانت – يومئذ – الطريقة التى يُختار بها الخليفة ، صار « الإمام علىّ » خليفة للمسلمين .

* * *

لم يكن بين أصحاب رسول الله الأحياء يومئذ ، من يفوق « الإمام » فى كفاياته الهائلة التى تجعله جديراً بمكانه فى الخلافة . .

ولم تكن الخلافة عندما عُرضت على « الإمام » وعندما قبلها ، تشكل أى مغنم من مغانم الحياة . . بل كانت تشكِّل عِبئاً ، لحامله الوَيل كل الويل ، إن لم يُعِنْهُ الله . .

وكان الواجب الكبير الذى ينتظر كل مؤمن وكل مسلم يومئذ ، بَذْل العون المستطاع لوقف امتداد الفتنة ، وذلك بالوقوف فى ولاءٍ وصدقٍ وإيثارٍ وراء « المنقذ » الذى تقدم ليحمل مسئولية الموقف كله ، وليدْرأ عن الإسلام ودولته وأمته أخطاراً لوقُدِّر لها أن تبلغ مداها ، لأتتْ على البناء كله من قواعده . .

لكن ذلك لم يَكُن . . بل كان نقيضه تماماً . .

* * *

إن رجولة الإمام ، وبطولته ، وعظمة مبادئه وسلوكه ، تتجلى الآن فى أبهى صُورها ، وقد صار خليفة وسْط الأهوال . .

obeikandi.com

تتجلىّ فى الدرس الذى تركته حياته للدنيا بأسرها . ألا وهو أن الولاء السَّديد للحق ، يتمثل فى الوقوف الصامد إلى جانبه ، وليس فى الدوران حوله ، لأن الوقوف إلى جانبه مهما يصاحب ذلك من هزائم ومصاعب ، هو وحده الذى يزيد فى نفوذ الحق ، ويجعل انتصاره النهائى أمراً محققاً .

بروح هذا الإدراك لقيمة الحق ، وبوثاقة هذا الولاء له ، بدأ « ابن أبى طالب » مَهامَّ منصبه كخليفة .

لقد بدأ يردُّ طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذى كان يسير عليه الخليفة الأول « أبو بكر الصديق » . .

وكان « الصِّديق » رضى الله عنه ، يعطى جميع الصحابة والمسلمين بالسَّويةدون تفريق بين مَن سَبق إلى الإسلام ، ومن جاء متأخراً . .

فلما وُلِّىَ الخلافة « عمر» رضى الله عنه نهج نهجاً آخر ، فجعل للسابقين الأوَّلين ، أكثر مما يأخذ الذين تأخَّر إسلامهم . . وقال فى ذلك قولته المأثورة :

[لا أجعل مَن قاتَل رسول الله ،
كمن قاتَل معه] . .

يشير بهذا إلى أنه لا يُسوِّى فى العطاء بين الذين التفُّوا حول الرسول مبكرين ، وقاتلوا معه من أول يوم ، وبين الذين طالما قاتلوه وهم كفار ، ثم صاروا فيما بعد من المسلمين . .

وكان « الإمام على » أميَلَ إلى نهج أبى بكر ، مُفسراً رأيه ، بأن الدولة لا تعطى المسلمين مَثوبة دينهم وثَمن إيمانهم ، فمثوبة الدين والإيمان

عند الله . . إنما تعطيهم حاجتهم ليعيشوا ، ومن ثمَّ فلا داعى للتمييز بينهم أو التفضيل .

كما أن التفاوُت فى العطاء من شأنه أن يخلق فرص تراكم الثروات لدَى بعض الأفراد . . مما يشكِّل مع الزمن فتنةً فى الدين وفساداً فى الدنيا . .

* * *

وفى خلافة أمير المؤمنين عمر ، لم تدَعْ صرامته ويقظته أىَّ مجال لتراكم الثروة ، فقد كان حسبه أن يعلم أن « فلاناً » من وُلاته قد فاضت نعماؤه وكثر ثراؤه ، حتى يرسل إليه فيقاسمه كل ما يملك ويرده جميعاً إلى بيت مال المسلمين .

* * *

ولكن فى خلافة « عثمان » وكان المسلمون قد بلغوا من الجُهد أقصاه بسبب ذلك الشَّظف وذلك الزهد اللذين فرضهما عليهم فى جلال باهر أميرهم العظيم « عمر بن الخطاب » .

كما وجدوا فى الخليفة الجديد « عثمان » من الطيبة والتسامُح ، ما أغراهم بأن ينالوا من طيبات الحياة كل ما يستطيعون .

هنالك انفتحت أبواب الدنيا بغير حساب ، ولئن وجدت من أصحاب الرسول من يعتصم دونها بورعه وبزهده وتُقاه . . فقد وجدت من بعض المسلمين ، لاسيما الذين أسلموا بعد الفَتح ، والذين أسلموا بعد وفاة الرسول ناساً كثيرين ، استسلموا لعَرَض الحياة الدنيا ، وفتنتها ، وعجزوا عن النهوض إلى مستوى الحياة التى يرسمها الإسلام للمسلم ، وخاصة فى أيامه الأولى . .

ولقد صار لكثير منهم ضِياع ، وتجارة عريضة ، ثروات وقصور وبذخ ، لاسيما ذلك النفر من الأمويين ، الذين استغلُّوا ظروفاً مُعينة ، ليجعلوا من أنفسهم طبقة متميزة بثرائها وبنفوذها .

* * *

جاء « الإمام على » فقرر أن يرد العطاء إلى نهج أبى بكر . . وهو يعلم علْم اليقين أن ذلك سيغضب منه بعض الصحابة الكِبار الذين أيّدوه ، ولا يزال فى حاجة أكيدة لاستمرار تأييدهم .

ولكن ابنَ عَمِّ الرسول لا يعرف المساومة فى الحق ؛ فليقف إلى جانب الحق ، وليكن ما يكون . . . !

هذه واحدة . .

والثانية التى نادت إليه المتاعب ، وفعلَها فى ولاء للحق وثيق ، هى أن نفراً من وُلاة الخليفة الراحل « عثمان » لم يكونوا فى رأى « على » أهلاً لهذه الولاية . . ولقد كانوا السبَبَ المُباشر فى الفتنة الرهيبة التى أودَت بحياة الخليفة « عثمان » . . لذلك بدأ « الإمام » فى الساعات الأولى لخلافته يصدر أوامره بعزل هؤلاء ، واضعاً مكانهم فريقاً من الأصحاب الذين معهم من الدين ، ومن الاستقامة ، ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة ، وملاذَ المسلمين . . .

عزلَ أولئك ، وولَّى هؤلاء . . وكان ضمن المعزولين « معاوية » الذى كان يومَئذ والياً على الشام بأسرها .

وكان « مُعاوية » قد طَال بالشام مُكثُهُ ، وكان يُعِدُّ لطموحه البعيد كل احتياجات الغَد المرتقب ، ومن ثمَّ أتمَّ هناك بناء جيش قوى .

وتألّفَ الناس بالأموال و بالدهاء حتى صارت الشام حصنه المغلَق ، المنيع ..

كان أمير المؤمنين « على » يعرف هذا جيداً .. كما كان يعرفه بعض أصحابه الذين ذهبوا إليه يرجونه متوسلين أن يُرجئ عزل ولاة « عثمان » وخاصة معاوية ، حتى يعطوه البيعة ، وحتى تستقر الأوضاع المضطربة وحتى يُمكّن « الخليفة » لسلطانه ، ثم بعدها يعزلهم كيف شاء ..

ولكن « ابن عمِّ الرسول وتلميذه الصَّدوق » لا يعرف المساومة فى الحق ، فهو يرفض أن يبقى واحد من هؤلاء فى مكانه يوماً واحداً ..

ويذهب إليه ابن عمه « عبد الله بن عباس » يرجوه أن يرجئ أمر « معاوية » بعض الوقت ، وستأتى قريباً فرصة عَزله ..

لكن الإمام الراشد يرفض – برغم كل العواقب – أن يتحمل أمام الله مسئولية إبقاء معاوية فى مكانه والياً للمسلمين ، ولو ساعةً واحدة من نهار ، قائلاً عبارته المأثورة :

[لا والله ، لن يرانى الله مُتَّخِذَ
المُضلِّينَ عَضُداً] .. ! !

وأمام ولائه الباهر لمسئولياته ، لم يضيع وقته هدراً ..

فقد نهض على الفور فأرسل عُماله الجدد إلى الأمصار :

عثمان بن حنيف ، إلى البصرة ..

وعمارة بن حسان ، إلى الكوفة ..

وعبد الله بن عباس ، إلى اليمن ..

وقيس بن سعد بن عُبادة ، إلى مصر ..

وسُهَيْل بن حُنيف ، إلى الشام ..

ولقد تسلم الوُلاة عملهم فى سلام ، إلا سُهيل بن حُنيف ، والى الشام الذى عُيِّن مكان معاوية ، فإنه لم يكد يصل أرض « تَبُوك » المتاخمة للشام حتى استقبلته كتيبة من جيش معاوية حالت دون دخوله البلاد .

ولما رجع إلى المدينة ، حاملاً هذا النبأ إلى الإمام ، لم يفاجأ بما سمع فقد كان يتوقع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع . .

* * *

طوال حياته العظيمة ، لم يتعود « علىٌّ » قط أن يكون هناك خِيارٌ بين مبادئه ، ومصالحه . .

وذلك لسبب يسير ، هو أنه لم تكن له مصالح أبداً . .

كانت حياته رسالة . . وكان عمله وسلوكه تعبيراً وافياً عن هذه الرسالة . .

وإنه الآن لقَادِرٌ بقليل من الدهاء والمسايرة ، أن يطوى « معاوية » حتى يقتلعه من مكانه فى هدوء .

ولكنه يتساءل دوماً : ما حاجة الحق إلى أن يُساوم . . وإذا ساوَم الحق فما مزيته على الباطل . . ؟ ؟

وها هو ذا يتصرف الآن وَفق هذا الإدراك لقيمة الحق ولقداسته .

لقد عزل « والياً » لا يراه أهلاً لمكانه ، ورفض هذا الوالى تنفيذ أمر خليفته ، ورئيس دولته .

إذن ، فليتحمل مسئولية موقفة وتمرده . .

هناك كتب إليه الإمام :

[. . أمَّا بعد ،

فقد بلغَك الذى كان من مُصاب
عثمان ، واجتماع المسلمين علىَّ ومبايعتهم
لى ، فادخل فى السِّلْم أوائْذَنْ بحرب] .

كان يرجو أن تردع هذه الكلمات « معاوية » ولكن رد « معاوية » كان عجيباً . . فقد قال لرسول الخليفة : [عُد أنت إلى حيث جئت ، وسأرسل بجوابى مع رسول من عندى] .

وفعلاً ، أرسل جوابه مع رجل من بنى عَبْس قطع الطريق إلى المدينة حاملاً رسالة حاكم الشام . . .

وما كاد « الإمام على » يفضّ الرسالة ليقرأها ، حتى ملأت الدهشة مُحياه . .

لقد كانت الرسالة ورقة طويلة وعريضة ، ليس فيها من كلام مسطور سوى هذا السطر الواحد :

– من معاوية بن أبى سفيان ، إلى على بن أبى طالب . . ! !

وارتسمت على شفتى « الخليفة » ابتسامة مريرة ، والْتفت صوب مبعوث معاوية الذى كان قد نهض وراح يتكلم قائلاً :

– أيها الناس ، اسمعوا منى وافهموا عنى . .

« إنى قد خلَّفتُ بالشام خمسين ألفاً ، خاضِبى لحاهُم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان ، را فِعيهِ على أطراف الرِّماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيمُوا سيوفهم حتى يقتلوا قتَلته أوتلْحَقَ أرواحهم بالله » . . ! !

هذه إذن : رسالة « معاوية » .

وهذه خُطته المرسومة لمناهضة الخليفة الجديد .

قميص عثمان . . ! !

نحن هنا ، وفى كتبنا المماثلة[١] لا نؤرخ للوقائع ، إنما نُؤرخ للعظَمَة . .

أجل . . العظمة الإنسانية التى بلغت فى الذين نؤرخ لهم ذُراها السامقة ، وغاياتها البعيدة . .

من أجل هذا ، لا ندع – الآن – ضجيج الحوادث وأفواج الوقائع ، تصرفنا عن تتبع العظمة التى يرسمها لنا « الإمام » . . وبمواقفه تجاه الوقائع والأحداث .

لقد سارت الأحداث على النحو الذى ساعد معاوية ، بينما زاد الأمور صعوبة وتعقيداً أمام « الإمام » .

فالسيدة « عائشة » رضى الله عنها ، وكانت قد خرجت إلى « مكة » معتمرة قبل مقتل « عثمان » قد جزعت لمقتله أشد الجزَع .

و « الزبير » و « طلحة » من كبار أصحاب رسول الله ، وقد تركهما « الإمام » يغادران المدينة إلى مكة عندما طلبا ذلك . على الرغم من نصيحة بعض أصحاب « الإمام » له كى يحتفظ بهما إلى جانبه حتى يأمن أمرهما .

عائشة أم المؤمنين ، والزبير ، وطلحة ، صاحبا رسول الله . . ساروا على رأس حشد كبير من المسلمين إلى البَصْرةَ ، ليحرضوا المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان . .

وكان « الإمام على » قد غادر المدينة إلى العراق عندما جاءته رسالة

---

(١) كتاب « محمد والمسيح » وكتاب « وجاء أبو بكر » و« بين يدى عمر » و« رجال حول الرسول » .

obeikandi.com

معاوية التى مرَّ بنا ذِكرها ، وقال الإمام :

[إِنّ لأهل الشام وَثْبَةً أُحب أن
أكون قريباً منها] . .

ولكنه ، وهو فى طريقه إلى العراق ، جاءته الأنباء بمسيرة عائشة ، وطلحة ، والزبير إلى البصرة .

أيُّ رزْءٍ هذا ، وأى ابتلاء ؟ !

ألا يُترك ثأر « عثمان » للدولة تقوم به ، وتقتصُّ له فى الوقت المناسب والفرصة الملائمة . . ؟

* * *

لم يكن لدى « الإمام » ريب فى اقتناع « السيدة عائشة » . و« طلحة » و« الزبير » ببراءته الكاملة من دم عثمان . . ففيم إذن خروجهم . . ؟

إن النبأ السَّارى يقول . إنهم خرجوا ليتعقبوا قتلة عثمان فى البصرة ، وليستعينوا بصالحى البصرة وبقية أهل العراق ممن آسَفَهم قتل الخليفة ، على أولئك الذين ائتْمروا على حياته وخاضوا فى دَمِه . .

ولكن هناك « دولة » على رأسها رجل مسئول لم تكن ذِمّته ، ولا أمانته ، ولا ورعَه ، ولا شدَّته فى الحق حتى على نفسه . لم يكن ذلك كله موضع تساؤل أواتهام منذ رأى نور الحياة وليداً إلى يومه هذا . . أفلا تُترك الدولة وعلى رأسها حاكم هذا طرازه الرفيع الأمثل ، تُسوى هى ، ويسوى حاكمها مسألة عثمان . . ؟

وإذا وقف فريق من الأمة يطالب بدم عثمان ، وفريق آخر يَدْحض

ويقاوم هؤلاء المطالبين ، واشتبك الفريقان فى معارك مسلحة فأين الدولة آنئذ . . أتجلس فى شرفة الملعب لتتفرج على المذبحة . . ؟ وما مصير الإسلام كدين . . ؟ وما مصير المسلمين كأمَّة . . ؟

دارت على ذلك كله خواطر « الخليفة » واتخذ قراره سريعاً فأمر موكبه الهادر من المدينة أن يلوى زمامه شطر البصرة . . وعندما شارفوا تخُومها نزلوا هناك بمكان يسمَّى « ذاقار » . .

* * *

وسرعان ما تحققت ظنونه وصدَق حَدْسه فإن موكب السيدة عائشة ، لم يكد يستقر فى البصرة . حتى وقع صدام مُروِّع بينه وبين حشود كبيرة من أهل البصرة أبوا أن يسلِّموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا فى مقتل عثمان .

إنها إذن الحرب الأهلية . التى حاذرها الإمام . .

وإنه وحده المسئول الأول والأخير عنها . .

أليس هو رئيس الدولة ؟ فإما أن يكون كفئاً لِفرض احترام القانون والدولة . . وإما أن يدع مكانه لآخر من الأكفاء . .

وليس هناك يومئذ أكفأ من أبى الحسن ، وإن العظائم كُفْؤُها العظماءُ ! !

* * *

لقد اعتاد « الإمام » دائماً أن يتصرف تصرُّف « القُدوَة » . . فهو فى كل حركاته ، وقراراته ، وأعماله يلتزم واجباتْ القدوة . .

إن كلماته ، وخطواته ، لتشكل طريقاً عاماً للأجيال المقبلة على

طول الزمن وعَرَضه ، ومن ثمَّ فإن الشعور بتبعات القدوة أكثر الأشياء إملاءً عليه ، وإيحاءً إليه ! !

في طفولته ، كان يسلك مسلك « القدوة » ، فلا يلعب لعب الأتراب ، ولا يلهو مع الصِّبية ! !

وفي شبابه ، كان يسلك مسلك « القدوة » ، فقضاه شباباً طاهراً وحمَّله مسئوليات الرجال مُبكِّراً . .

وفي رجولته ، وخلافته ، أعطى كل عزمه وكل نفسه لما تتطلبه « القدوة » من تبتُّل وصمود ! !

وهو الآن وقد واجهته الفتن في مَوج كالجبال ، لن يلقاها بمسئوليات « الخليفة » فحسب . . بل سيلقاها قبل ذلك بمسئوليات « القدوة » ! !

أجل . . بمسئوليات « القُدوة » الذي ستصبح اتجاهاته وقراراته طريقاً عاماً ، وقانوناً عاماً لعصور مقبلة ، وأجيال وافِدة . .

ولن نجد في حياة « علي » بكل عظمتها وعطائها ، أروع ولا أجزل من مواقفه في تلك الفتن المظلمة الرهيبة التي واكَبَتْ خلافته من أول ساعة إلى أن لقي رَبَّه . .

هنا نلتقي بمُعلِّم كبير ، ليس من طرازه سواه . . « مُعلِّم » لم يكن يعنيه النصر على خصومه ، ولا تأمين خلافته وحكمه وسلطانه .

إنما كان يعنيه – لا غير – أن يعطي من حياته ومسلكه صورة مُشرِّفة لمسلم من الرَّعيل الأول ، سمع دَوِيّ الوحي ، وصلى وراء محمد . . ! !

أجل . . صورة مشرفة لمسلم ربّاه القرآن ، وقدوة صالحة لمواكب المسلمين القادمة مع الغيب القريب والبعيد . . ! !

هذا هو الذى كان يعنيه . . وبعد ذلك ، ليكن ما يكون . . نصر ، أم هزيمة. . . خلافة ، أم عَزل . . حياة ، أم موت . .

لا شىء بعد القدوة الصالحة ، ترنو له النفس ، أوتحوِّم حوله الرغبة ! ! !

وهكذا نلتقى بـ« الخليفة » يتصرف تصرف « القدوة » . . الآن ، وكل آن . . اليوم ، وهو يواجه جيشاً تقوده « أم المؤمنين » و« الزبير » و« طلحة » وغداً ، وهو يواجه جيوش معاوية . . وبعد غد ، وهو يواجه الخوارج . . ! !

* * *

عندما جاءته أنباء الصدام فى البصرة ، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته . فلما وفدوا عليه ، زلزلوا الأفق بصياحهم ، وملأوه بسيوفهم المشرعة ، وراحوا يتعجلون « الإمام » ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير . .

وهنا تجلَّت فطنة الإمام ونور بصيرته ، فلقد استبان من الحماس المشبوب لأهل الكوفة ، أنهم كانوا على وشَك أن يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة ، لينضموا إلى المقاومة المسلحة التى هبّتْ هناك فى وجه طلحة والزبير . .

ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك فى الثورة على الخليفة الراحل « عثمان » ، فإن فى أهل الكوفة من اشترك أيضاً والآن وقد رأوا أنفسهم فى مَهبِّ العواصف ، فقد تنادَوا بالنصرة ، وتلاقوا على الحميَّة . .

فوضْعُ هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة كان عملاً حكيماً وحصيفاً . .

* * *

رأى « أمير المؤمنين » حماس أهل الكوفة ، فأراد أن يهديهم سواء السبيل ، وراح يعلمهم أن الحق يُدرَك بأسباب كثيرة آخرها امتشاق الحسام . . وأنهم إذا فرض عليهم أن يخوضوا قتالاً ، فلا بد أن يكون مشروعاً وعادلاً . . وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد فى إحقاق الحق عن طريق الإقناع والسلام . .

هنالك دعا – القعقاع بن عمرو– وأرسله بغصن الزيتون إلى أم المؤمنين ، وطلحة ، والزُّبير . .

وفى البصرة بدأ « القعقاع » بمحادثة « أم المؤمنين » ، ثم جاء « طلحة » و « الزبير » فعقدوا اجتماعاً طال فيه الحوار .

وندعُ « ابن كثير » المؤرخ الكبير ، ينقل إلينا بعض فقرات هذا الحوار ،

القعقاع : يا أم المؤمنين ، ما جاء بك إلى هذا البلد ؟

أم المؤمنين : الإصلاح بين الناس . .

القعقاع : وأنتما – طلحة والزبير– ما جاء بكما ؟

طلحة والزبير : الإصلاح بين الناس ؟

القعقاع : فأخبرونى كيف يكون هذا الإصلاح ؟

طلحة والزبير : يكون بالثأر لعثمان ، وقتل قاتليه . .

القعقاع : لقد قتلتما قتلَته من أهل البصرة ، وأنتما قبل قتلهم أصوب نهجاً منكم بعد قتلهم ، لأنكم قتلتم ستمائة ، فغضب لهم ستة آلاف .

وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو – حرقوص بن زهير – فلا تقدرون على إدراكه ، لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه . . أفلا تعذرون – أمير المؤمنين علياً -- إذا هو أخَّر قتل قتلة – عثمان – إلى أن يتمكن منهم ؟

إن الكلمة فى جميع أقطار الإسلام مختلفة ، وإن خَلقاً كثيرين من ربيعة ومُضَر ، قد تجمعوا ليشعلوها حرباً ضروساً . . !

أم المؤمنين : وما ترى ياقعقاع ؟

القعقاع : أرى أن تؤثِروا العافية ، وتُعطوا البيعة ، وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً ، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له ! !

وانتهى الحوار – كما يحدثنا ابن كثير – باقتناعهم بمنطق القعقاع ، واتفاقهم على أن يجىء الإمام علىّ إلى البصرة ليتم لقاء السَّلام .

* * *

عندما رجع « القعقاع » إلى « الخليفة » وأنبأه بما كان ، طار فؤاده فرحاً ، ولم يكن على وجه الأرض ساعتئذ أسعد منه ولا أهنأ . .

لقد حُفظت دماء المسلمين فلن تُراق . . وليس مثل ذلك شىء يفىء على روح « الإمام » السعادة والغبطة .

وخطبته التى ألقاها على جنده ساعتئذ ، تنقُل إلينا أفراح نفسه ، وحُبور ضميره . .

لقد راح يستعرض لهم الجاهلية بخصوماتها العاتية وحروبها الضارية حتى جاء الإسلام فألَّف بين القلوب ، وآخى بين البشَر ، وجعل الناس سواسيةً كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وذكَّرهم بتلك الوحدة الباهرة التى جمعت المسلمين من كل مكان تحت إمرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ثم تحت إمرة خليفته من بعده « أبى بكر الصديق » ثم تحت إمرة أمير المؤمنين « عمر » ثم تحت إمرة خليفة المسلمين « عثمان » وختم حديثه

قائلاً ، وكأنما كانت عيناه إذ ذاك على معاوية . .

[. . . . ثم حدث هذا الذى جرى
على الأمة . .   أقوام طلبوا الدنيا
وأرادوا للإسلام أن يرجع القهقَرى . .
ولكن الله بالغُ أمره . .
« ألا إنى مُرْتحِلٌ غداً ، فارتحلوا
معى . .
« ولا يَرتحِلْ معى أحد أعان على
قتل عثمان ولو بشَطْر كَلِمة] ! !

إنه « الرجل القدوة » هو الذى يتحدث ، وإنه لَيتَّخِذ من الكلمات ومن المواقف ما يزيد الحق نفوذاً ، والعدل رسوخاً ، والفضيلة ازدهاراً . .

* * *

ورحل أمير المؤمنين إلى البصرة بمن معه من صحبه وجُنده . . وحطوا رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لإجراء الصلح . .

ولكن كانت هناك عيون لا تنام ، ومؤامرات لا تغفو . . والله وحده يعلم حقيقة القُوى المخبوءة التى حرَّضت تلك العيون ونسجت تلك المؤامرات ، وغيرت اتجاه الرياح !

التاريخ يحدثنا – فيما يُحدث – أن قتلة « عثمان » حزموا أمرهم على إفساد هذا الصلح ، معتقدين أنه سيتم على حساب رؤوسهم ودمائهم ، فهل كان ذلك كذلك فحسب . . ؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها فى اشتعال النار هوًى ومصلحة . . ؟

obeikandi.com

على أية حال ، فإن فجر اليـوم الذى ضُرب موعداً لبدء المصالحة لم يكد يبزغ حتى كان ألفا رجل من قتلة عثمان يقتحمون خيام جيش البصرة الذى يقوده طلحة والزبير ، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون . .

ونهض الجميع إلى سيوفهم . . ولم يكن هناك مجال لإزالة اللَّبْس وتفنيد المؤامرة ، ووقف الفتنة . فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خُدعة .

وهكذا الْتقَ الجيشان فى موقعة « الجمل » على الرغم من كل ما حاول الإمام أن يُنقذ به السلام ! !

* * *

مضى القتال حامياً عنيداً . .

ومع كل رأس يميل ، أومعصم تُبتر ، أوساق تقطع . . بل مع كل قطرة دم تسيل ، كان قلب « الإمام » ينخلع ويذوب . .

لقد كان يُسْكِرُه الكرُّ والفرُّ فى صراعه مع المشركين .

أما اليوم ، والقاتل والمقتول أبناء دين واحد ؟ وهو الخليفة المسئول عن هذه الأمة بكل دمائها وأرواحها ، فَمن يُجيره من هذا الموقف؟ من يجيره ؟

* * *

لكنه حتى وهذه الأهوال كلها تحيط به ، لا يفقد شرف البطولة وعظمة النفس . . !

ففيم تقتتل هذه الألوف من المسلمين ؟

أليس بعضهم يقاتل من أجل « على » وبعضهم الآخر مع « طلحة والزبير » . . ؟

إذن ليبرز طلحة والزبير وعلى معاً .. حيث يسوُّون مع أنفسهم وحدها الحساب على أية صورة ، فيقف جريان تلك الدماء الغالية .

هنالك دفع جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له ، ونادى :

– إلىَّ يا طلحة .. إلىَّ يا زبير ! !

وخرجا إليه ..

وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان .

وصاح فى « طلحة » صيحة احتشد فيها كل ما ورَّثه آباؤه من شرف ونخوة :

[يا طلحة ..
أخبَأتَ عُرسَك فى البيت وجئت
بعُرس رسول الله تقاتل بها] .. ؟ ! !

وزأر الأسد زئيراً هزّ أرجاء الأفق ، وسقط المطر فجأة .. وكأنما هى دموع السماء هزّتها روعة الكلمات وأساها .. ! !

ثم التفتَ صوْب الزبير ..

[.. وأنت يا زُبير ..
أتذكر يوم –كذا– عندما رأيتنى
مُقبلاً على رسول الله فضحكت لى ..
فسألك الرسول : أتحبه يازبير ؟
فقلت : نعم ..
فقال لك ! أمـا إنك لَتقاتِلنَّه
وانت له ظالم] ..

كانت الكلمات تحتشد فى فمه ثم تنفرج عنها ثناياه فى مثل ألَقِ الشمس وعنفوان القدَر.

وصاح «الزبير».

[أَجَلْ ..

ولقد ذكّرتنى بما كنت قد نسيت].

وألقى سيفه إلى الأرض، وراح يختلج بين الصفوف ودموعه تبلِّل الأرض أمامه

وعاد «على» إلى صفوفه جنده ..

وغادر «طلحة» أرض القتال .. وغادرها «الزبير» ..

غادراها بعد أن سمعا من «الإمام» ما سمعا ..

وبعد أن علما أن «عمّار بن ياسر» يقاتل فى جبهة الإمام على.

وتذكَّرا ما كان الرسول قد قاله ذات يوم لعمار:

[تقتلُك الْفِئَةُ الباغية] !!

بيد أن الأضغان المريبة لم تدعْهُما ليذهبا فى سلام.

فأما الزبير فقد تربصت به فى الطريق عصابة آثمة قتلته ..!!

وأما طلحة، فلم يكد – مروان بن الحكم – الأموى يعلم بعزمه على الانسحاب من القتال حتى تربص به ورماه بسهم أنهى حياته!

* * *

لم يبق لجيش البصرة من قائديه أحد ..

لقد ذهب عنه طلحة، والزبير .. بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم.

هنالك لم يجد الراغبون فى استمرار القتال سوى « أم المؤمنين » فى هودجها فوق ظهر الجمل الذى كانت تمتطية مشرفة على القتال . .

ورأى الإمام أن خُصومه قد اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها .

وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء المهراقة ، منوطان بنهاية هذا الجمل .

وأشير عليه ، أو أشار هو على نفسه أن يُرمى الجمل بسهم يجهز عليه . . وأوصى بعض أصحابه وجنده ، أن يكونوا على أقرب قرب مُستطاع من الجمل ، حتى إذا عُقر وسقط ، سارعوا هم إلى هودج السيدة عائشة فأحاطوه بأرواحهم ، وتلقَّوه قبل أن يسقط على الأرض فيصيبها سوء .

رجل . . وبطل . . وقدوة .

فماذا يُنتظر منه غير هذا الصنيع . . ؟ !

ونُفذت الخطة بنجاح . .

وانتهت المعركة ، ووقف القتال .

ودعا إليه « محمد بن أبى بكر » فأمره أن يصحب أخته أم المؤمنين عائشة إلى دار أعدت لاستقبالها ريثما تتهيأ لها وسائل العودة إلى مكة فالمدينة فى أمْن ، وإكرام ، وسلام .

ثم وقف « الإمام » بنفسه وسط جنده وأصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد :

[لا تتَّبِعوا مواليًا . .

ولا تُجْهِزوا على جريح . .

ولا تنتهبُـوا مالاً . .
ومَن ألقى سلاحه فهو آمن . .
ومن أغلَق بابه فهو آمن] . .

يقول المؤرخون(١) .

[فكان أتباع الإمام يمرون بالذهب
والفضة ، فلا يعرض لهما أحد] . .

لقد نفذوا أمر الإمام فى مرارة وضيق . أو هكذا كان شأن بعضهم على الأقل . . مما جعلهم يسألون الإمام :

– كيف حلَّ لنا قتالهم ، ولم يَحلَّ لنا سَبْيهم وأموالهم ؟

فأجابهم الإمام :

[ليس على الموحِّدين المؤمنين سَبْى . .
ولا يُغْنَمُ من أموالهم إلا ما قاتلوا به
وعليه] . .

كان « الخليفة » يعلم أن نهيه هذا سيؤلب ضدَّه بعض مؤيديه من ضعاف الوازع . . ولكن لينفضَّ عنه الناس أجمعون إذا كان إيثارُه الحقَّ سيظلُّ قصده وسبيله ! !

* * *

وانتهت هذه الجولة بانتصار أمير المؤمنين .

ولم يكن الانتصار العسكرى يمثل سوى الحظ الأدنى فى هذا الانتصار الكبير . أما الحظ الأوفى فيه ، فكان انتصار حقه ، ومبادئه .

(١) الأخبار الطوال ، لأبى حنيفة الدينورى .

فانسحاب طلحة والزبير من القتال فى أوْج احتدامه ، جاء اعترافاً منهما بأن « عليًّا » مع الحق . .

ونَدمُ « أم المؤمنين » فيما بعد على الزجِّ بنفسها فى هذا الموقف يشكلُ اعترافاً بأن « عليًّا » على الحق .

وهذا هو النصر الأهمّ الذى ينشرح له صدر الإمام .

إن كل ما يرجوه ويطمع إليه ، أن يقف بجانب الحق ، وأن يفهم الناس عنه ذلك ، ليكونوا له عوناً على تقديس الحق .

وإن كل ما يرجوه ويطمع إليه أن يظلَّ أميناً على واجبات « القدوة » والتزاماتها . وأن يفهم الناس عنه ذلك أيضاً ، لينتفعوا بهذه القدوة فى تشكيل حياتهم .

ولقد واجه الموجة الأولى من موجات الفتنة الضارية بجأش البطل ، وأناة الحكيم ، ووَرَع القُدوَة .

لننظر هذا المشهد الأخير من مشاهد موقعة الجمل .

لقد كان يجلس فى داره بعد انفضاض المعركة ومعه أصحابه ، حين دخل عليه أحد أتباعه يقول :

– عمرو بن جرموز قاتل « الزبير » بالباب يستأذن فى الدخول . .

وأذن « الإمام » بدخوله . .

ودخل « القاتل » مَزهُوًّا فخوراً ، يظن أن الخليفة سَيَهشّ له ، ويستقبله استقبال الأبطال .

لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ فى وجهه :

– أهذا الذى تحمله سيف الزبير . . ؟

قال وقد هزمت غرورَه صرخةُ الإمام .

– نعم هو . . سلَبتهُ منه بعد أن قتلتهُ ! !

فأخذه منه « الإمام » بيمينه . . ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه فى خشوع إلى فمه . . ثم قبَّله فى حنان وحُزن ، وقال ودموعه تسيل على وجنتيه :

[سَيفٌ طالما – واللهِ – فرَّج به
صاحبُه الكربَ عن رسول الله] ! !

ثم صوَّب إلى القاتل نظرات ملتهبة وقال له :

[أَما أنت ، فأبْشر يا قاتل ابنِ
صَفِيَّةَ بالنار] . .

وخرج « عمروبن جرموز » يتعثر فى خِزيه ، وخيبة أمله ، ويقول :

« عجباً لكم . . نقتل أعداءكم ، وتبشروننا بالنار ! ! ! »

* * *

تلك عظمة ربيب الوحى ، وسابق المسلمين . . تلك عظمة الرجل ، والبطل . .

تلك عظمة الخليفة ، والقدوة ، وإنها لعظمة لن تكف عن توكيد ذاتها ، ما دام صاحبها حيًّا يُمارس العظائم ، ويصوغ المكرُمات . .

فإلى مشاهدَ أُخرى لنرى من أمرها عجباً .

* * *

تذكرون تلك الرسالة وذلك الرسول اللذين أرسلهما معاوية إلى أمير المؤمنين . .

الرسالة ورقة بيضاء فيها سطر واحد مكتوب هو :

= من معاوية بن أبى سفيان ، إلى على بن أبى طالب = هكذا « على بن أبى طالب » لا غير . . دون أى ذكر لِلقبه . . فلا خليفة المسلمين ، ولا أمير المؤمنين ! !

بل إن وَضعَ اسمه واسم أمير المؤمنين فى مقابلة كهذه تؤمئ إلى التنابُز القبلى والجاهِلىّ فى هذا الخطاب . .

فكأنه يقول له : أنا – ابن أبى سفيان – . . وأنت – ابن أبى طالب – وسننظر أى الابنين أعلى مقاماً ، وأشد ساعداً . . ! !

غفر الله لمعاوية : فما كان أغناه عن هذا الذى لجَّ فيه ، وتهالكَ عليه . .

لقد رفع فى الشام – كما قال رسوله لعلى – قميص عثمان حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضبى لِحاهُم بدموع أعينهم ، رَافِعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلَةَ عثمان ، أو تلحق أرواحهم بالله . . ! !

فِيم كل هذا . . ؟ ولِمَهْ . . ؟

حقًّا إن قتل الخليفة الشهيد « عثمان » كان أبشع جريمة ارتكبت فى تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم .

ولا تتمثل الجريمة فى اغتيال الخليفة الشرعى ، فحسب ، وإن يك ذلك كافياً لدمغها بالجريمة وبالبشاعة . . إنما تتمثل أكثر وأكثر فى الطريقة التى تمَّ بها الاغتيال .

تلك جريمة لا مكان للحديث عنها الآن . . وقد نجد مكانها فى

كتابنا القادم إن شاء الله عن « عثمان » .

أما هنا . فحسبنا أن نسأل : فيم هذا الصُّراخ كله فى وجه « على » — أين دمُ عثمان . ؟

إننا لا نلوم ، بل نُحيي كل صوت صادق نزيه ارتفع مطالباً بدم عثمان !

وإن الطريقة التى اعتُدى بها على حياة الخليفة ، وعلى كرامة الدولة فى شخصه ، لتجعل الحجر الأصمَّ ينطق ويصيح ! اقتلوا قتلة عثمان . .

ولكن : هل كان نهج « معاوية » هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بأولئك القتَلة . ؟

أكان طريق القصاص ، أن يمتنع أولاً عن البيعة للخليفة الجديد الذى اختاره المهاجرون والأنصار فى المدينة ، ثم دخل المسلمون فى بيعته أفواجاً من كل الأمصار والأقطار . . ؟

أكان طريق الثأر لعثمان ، أن يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة فى تلك الظروف المزلزلة التى لا تتطلب شيئاً كما تتطلب رَأْبَ الصَّدْع وجمع الكلمة . . ؟

أكان طريق الثأر لعثمان ، أن يطوف بقميصه بلاد الشام كلها ، غارساً فى قلوب الناس أن « عليًّا » هو الذى أعان على قتل « عثمان » بالأمس . . وهو الذى يؤْوِى قاتليه اليوم . .

أكانت آية ولائه وحبه لعثمان ، أن يجعل من قميصه المضمَّخ بدمه — راية — يبعث تحتها كل غرائز الجاهليــة ، ويدير تحتها أتعس حرب

أهلية تزلزل الإسلام وتُفنى المسلمين . ؟

مرة أخرى ، يغفر الله لمعاوية . . فما كان أغناه عن هذا المنزَلق الوَعر ، والهُوَّة الفاغِرة ! !

* * *

إن جميع المسلمين الراشدين وقفوا بعد مقتل الخليفة يطالبون باحترام دمه ، والقصاص له . .

إن ذلك كان يمثل أيضاً احترام الدولة والقصاص لحرمتها وهيبتها .

« الإمام على » نفسه ، كان يطالب بدم « عثمان » ولكنه وقد صار على رأس الدولة ، فإنه لم يعد مُجرَّد مطالب بالدم . . بل صار السُّلطة التى عليها أن تنزل القصاص .

ولما كان المشتركون فى قتل عثمان والمحرضون عليه ، ألوفاً ، وليسو عشرات ، أو آحاداً . ولما كانت فتنتهم المسلحة لا تزال قائمة ونامية . فضلاً عن المضاعفات الجديدة الخطيرة التى طرأت على الدولة ممثلة فى معركة الجمل ، وفى تمرد معاوية وأهل الشام — فإنه لم يكن ثمة فرصة لإنزال هذا القصاص إلا بإجادة التوقيت المحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الجو المضطرب وتلك الفوضى .

و « عبد الله بن عباس » ابن عم الإمام على . وأحد قواده فى حروبه كلها ، طالب أيضاً بدم عثمان ، بل قال فى ذلك كلمة تغنى عن كل مقال فى ذلك المجال .

قال رضى الله عنه :

[لو لم يطالب الناس بدم عثمان

obeikandi.com

لأمطرت السماء عليهم حجارة] ! !

ففيم إذن كل هذا الاتهام لأمير المؤمنين عليّ ، وفيم كل هذا التحريض على عصيانه وقتاله . ؟

ها هو ذا – معاوية – بالشام لا يضيع لحظة من وقته فى التجهيز لمعركة كبرى . هاهو ذا يُثير الجموع ضد الإمام ، فأين الإمام الآن ؟

انظروا . . ها هو ذا قد رحل عن البصرة ، وسار بأصحابه حتى نزل « الكوفة » .

لم تشغله المفاجآت الجديدة ولا الأخطار الماثلة عن فضائله ، فراح يمارسها بطريقته الفردية . .

بدأ ببيت المال فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال ، وقسمها على مستحقيها . .

ويقترح عليه بعض مُرافقيه أن يستأنى فى الأمر وأن يستبقى من المال ما سيحتاج إليه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات ، فيرفض .

ثم يمعن فى غايته حتى إذا فرغ بيت المال ، يأمر الإمام أن تُنضح أرضه وتغسل بالماء . . حتى إذا تم ذلك ، قام فصلى فوق أرضه المغسولة ركعتين ! !

كانت هذه الصلاة فى بيت المال بعد نضح أرضه بالماء رمزاً لمعنى جليل .

كانت إيذاناً بعهد جديد تسيطر فيه الآخرة على الدنيا ، ويسترد الورع والتقى نفوذهما على الدولة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأنفس والأفئدة جميعاً ! !

ثم دعى لينزل قصر الإمارة .. قصر كبير ترتفع هامته فى شموخ وفتنة – فلا يكاد يبصره حتى يُولِّى عنه مدبراً وهو يقول :

[قصر الخَبَالِ هـذا ، لا أسكنُه
أبداً] ! !

ويُلح عليه أهل الكوفة أن ينزل به ، فهو أرحب ، وأنسب ، فيُصر على رفضه ويقول :

« لا حاجة لى فيه : إن عمر بن
الخطاب كان يكرهه » . . .

ويمشى فى أسواق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين ، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقى بالشيخ المسِنِّ الكهْل ، فيحمل عنه حاجته ويتحرَّجَ أصحابه مما يروْن ، فيقتربون منه : يا أمير المؤمنين .

ولكنه لا يدعهم يُتمُّون حديثهم ، بل يتلو عليهم قول الله تعالى :

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا
لِلَّذِين لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ ،
ولاَ فَسَاداً ، والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ».. .

ويشترى حاجات أهله وبيته ، ويحملها بيديه فإذا اقترب منه بعض مُرافقيه ليحملوها عنه أبى وقال وهو يبتسم لهم :

« أبو العِيال أحق بحمله » ! !

* * *

ويرتدى « الخليفة » جلباباً اشتراه من السوق بثلاثة دراهم ..

obeikandl.com

ويركب حماراً، وقد تدلّت على جانبيه ساقاه ، وكأنه واحد من فقراء البادية . . ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جواداً يليق بأمير المؤمنين . . فيجيبهم قائلاً :

« دعُونى أُهِنْ هذه الدنيا » ! !

* * *

أجل . . ذلك كان طريقه . أن يقهر كل إغراء الدنيا ومباذخ السلطان . وأن يعيش كما كان رسوله ومُعلمه يعيش . فى تواضع النبوة ، لا فى بهرجة الملك . . وفى انتظار الآخرة ، لا فى الرُّكون إلى الدنيا .

ولقد أحسن وصفه « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه حين قال :

« أزهَدُ الناس فى الدنيا على ابن أبى طالب » .

كما وصفه « الحسن البصرى » رضى الله عنه حين قال :

« رَحِمَ اللهَ عليّاً كان رهبانى هذه الأمة » .

* * *

رهبانى هذه الأمة ، مقيم هناك بالكوفة ، يعيش عيشة البسطاء الوُدعاء ، ويعبد ربه عبادة القديسين الأولياء ، ويحمل مسئوليات دولته وأمته فى مثل عزم الأنبياء . .

ولقد دخلت جميع الأقطار المسلمة فى بيعته ، عدا الشام ، فقد كانت بها دنيا هائلة من المؤمرات تتحرّك ضده ، وتتهيأ لفرض القتال عليه . . ! !

معاوية بالشام ، يحض الناس على سَبِّ الإمام وشَتْمه . .

والإمام بالكوفة ، ينهى فى حسمٍ وقوة عن شَتْم معاوية . ويقول لأصحابه :

[. . . قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا
ودماءهم ، وأصلِحْ ذات بَيْننا
وبيْنهم] . . ! !

معاوية بالشام ، بين القصور الباذخة ، والمطاعم الرافهة ، والأموال التى تأتى بغير حساب ، وتُنفق فى خدمة طموحه بغير حساب .

و « علىٌّ » بالكوفة ، يلبس قميصاً بثلاثة دراهم ، ويأكل الطعام الجَشِبَ اليابِس ، ويوزع أموال المسلمين على المسلمين فى عدالة لا تعرف الميْل ، وفى ورع لا يعرف الهوى ! !

* * *

وأخذت وفود المسلمين تغدو وتروح بين الإمام فى العراق ، ومعاوية فى الشام .

منهم من يبحث عن الحق ليهتدى إليه ويقف إلى جانبه . .

ومنهم من يبحث عن المغنَم الأكثر ، والفرصة الأحسن .

كانت الشام تسخو بالأمانىّ والوعود كما كانت تسخو بالأموال والعطايا . .

وكان العراق يهتف بكلمة واحدة :

[مَنِ اهْتَدَى ، فإنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ

وَمَنْ ضَلَّ ، فإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا]

وبعد هذا ، لا أمانىَّ ولا وعود .. لا رشوة .. ولا مغامرة بأموال الأمة – كما يفعل خُصومه – مهما تكن المخاطر والعواقب .

وحين يقترب من الإمام بعض أصحابه ، يرجونه أن يتألّف ببعض المال هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بأعطياته الغامرة ، يصيح بهم الإمام :

[أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور] ؟

إيه يا تلميذ محمد ! !

إيه ياابن عم الرسول ! !

مَن سواك فى هذا المقام يستطيع أن يأخذ موقفك هذا ، ويقول كلماتك هذه ؟ !

ويقف – معاوية – وسط الوفود الزائرة ، يخطبهم تحت قميص عثمان ، فيتهم الإمام بالتحريض على قتله وإيواء قتلته . .

ويقف الإمام فى العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص القضية كلها فى كلمات تناهت فى الصدق والوضوح وعفة المقال :

[. أما بعد ، فإن الله بعَث نبيه
صلى الله عليه وسلم ، فأنقذ به من
الضلالة ، وحفظ به من الهلكة ،
وجمع به بعد الفُرقة ، ثم قبضه الله
إليه وقد أدَّى ما عليه . .

« ثم استخلف الناس أبا بكر . .

« ثم استخلف أبو بكر عمر . .

« ولقد أحْسَنَا السِّيرة ، وعدَلا فى الأمـــة . .

« وقد وجَدْنا عليهما أَن تولَّيا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر . ولكنا غفرنا ذلك لهما . .

« ثم وَلِىَ أمرَ الناس عثمان ؛ فعمل بأشياء علبها الناس عليه ، فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم جاءنى الناس وأنا معتزل أمرهم ، فقالوا لى : بايِع ، فأبيتُ عليهم . .

« ثم عادوا فقالوا لى : بايع ؛ فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق النـــاس ، فبايَعْتُهم .

« فلم يَرُعْنِى إلا شِقاق رجلين قد بايعانى — يقصد طلحة والزبير —

« وخلافُ معاوية إيّاى . . هــذا الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلَفَ صدْقٍ فى الإسلام . . طليق بن طليق . . دخلا فى الإسلام كارِهَيْن مُكْرَهَين .

obeikandl.com

– يعنى معاوية وأبا سفيان –
« إنى أدعوكم إلى كتاب الله ، وسُنَّة نبيكم .
« أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم] . . ! !

* * *

هذه هى القضية ، يعرضها الإمام فى وضوح . .

فلقد أفْلتَ الزمام فعلاً من يد الخليفة الراحل عثمان ، بسبب ثقته المفرطة فى بعض أقربائه من بنى أُمَيَّة الذين لم يُحسنوا قط الارتفاع إلى مستوى مسئولياتهم كبطانة للخليفة ورُعاةٍ للأمة .

ولطالما نصحه الإمام وحذَّره العواقب . .

ولما وقعت الواقعة كان أكثر الناس همًّا وكرْباً . .

وراح يهتف ويصيح :

[اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان .
اللهم إنى لم أقتُل ، ولم أُمالِئْ .
اللهم العن قتلة عثمان] .

* * *

ولكن أهل الشام ، ومعظمهم يومئذ من المسلمين الجُدد الذين لم يروا عليًّا ولا يعرفونه ، رانتْ على أفئدتهم دعوى معاوية . . ولم يجدوا هناكَ من ينبئهم بحقائق الأمور .

لم يجدوا مَن يقول لهم : إن قتل عثمان جريمة لا تصدر عن دين

« عَلِىٍّ » ولا عن خُلُقه . .

لم يجدوا من يقول لهم : إن « عليًّا » كان « مُحدَّد الإقامة » فى المدينة ، وإن الثوار جاءوا من بلاد شتَّى ونائية . . فمتى اجتمع بهم فى بلادهم ؟ ومتى أخرجهم منها للثورة . . ؟ ومتى حرَّضهم على القتل . . ؟

لم يجدوا من يقول لهم : إن « عليًّا » لم يكن يملك أية قوة يستطيع بها مواجهة عشرة آلاف ثائر ، رابطوا فى المدينة وحاصروها . .

وبرغم ذلك ، فقد استعان عليهم بمنطقه الأخَّاذ ، وحجته المقنعة حتى استجابوا لنُصحه بمغادرة المدينة والرجوع إلى بلادهم . ولقد غادروا المدينة فعلاً عائدين إلى أمصارهم ، لولا أن صادفوا فى الطريق رسولاً يحمل كتاباً زوَّره « مروان بن الحكم » على الخليفة ، ومَهره بخاتمه من غير أن يعلم . . وكان الكتاب أمراً بقتل زعماء الثوار جميعاً . . وكان – مروان – آنئذ بمثابة رئيس ديوان الخلافة ، فعاد الثوار إلى المدينة أشد غيظاً وعُدواناً !

أجل . . لم يجد أهل الشام مَن يقول لهم ذلك ؛ ولا مَن يقول لهم : إنه عندما أحكم الثوار الحصار حول دار « عثمان » ومنعوا عنه الماء ذهب « على » بنفسه يحمل قربة ماء على كاهله ، ولما حاولوا منعه صرخ فيهم قائلاً :

« والله إن الكفار من فارس والروم
لا يفعلون فعلكم . .
« إنهم لَيَـأسِرون أعـداءهم ،
فيطعمونهم ، ويسقونهم » . . ! !

وناوَشهم وناوشوه . حتى سقطت عمامته على الأرض ، وهو لا يبالى إلا بأن يبلغ بالماء « عثمان » ولقد فعل وأوصل قربة الماء إليه . .

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن « الإمام » دعا ولديه وقُرَّة عينيه – الحسن والحسين – وأعطى كلا منهما سيفه ، وأمرهما أن يقفا حول سرير « الخليفة عثمان » وهو يرى الحصار الرهيب حول الدار ، ويدرك أنه يقدم ولديه للموت لا محالة . . ! !

لم يجدوا من يقول لهم : إنه عندما عاد « الحسن والحسين » يخبرانه بمقتل الخليفة فعل بهما ما لم يفعل بهما طوال حياته . إذ عنفهما تعنيفاً شديداً ، وعجب لهما : كيف قُتل « عثمان » وهما لا يزالان يحملان رأسيهما على أكتافهما . .

« إذا لم تستطيعا أن تمنعا عنه ،
فكان عليكما أن تموتا دونه » . . ! !

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن « عليًّا » كان يرى الأخطاء الجسيمة . . وكان يؤلمه ويفزعه تسامح الخليفة تجاهها . . ولكنه لم يكن ليرى اغتيال الخليفة – علاجاً أيًّا كان هذا الخليفة – فما بالكم والخليفة المقتول أخوه فى الله ، وزميله فى الغزوات والمشاهد ، مُجهِّز جيش العُسْرة بخالص ماله ، وصهره – عديلُه – إذ كان كل منهما – على وعثمان – زوجاً لبعض بنات رسول الله . . ! !

لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك ، ولا شيئاً من ذلك .

لم يجدوا إلا « قميص عثمان » وكان بعض المسلمين قد حصل عليه ، وحمله إلى معاوية بالشام ، حيث رفعه عالياً ، وحشد تحته خمسين ألفاً

obeikandi.com

يلوِّحون بسيوفهم ورماحهم ، ويصيحون ! يا لَثاراتِ عثمان ! !

* * *

تُرى لو لم يتبوَّأ « على » منصب الخلافة ، أكان معاوية سيحمله دَمَ عثمان . . ؟

كلا . . وإنما كان سيتجه باتهامه إلى الخليفة الآخر ، إلا إذا كان ممن يرضى عنهم معاوية ويطمع فى طَيِّهم تحت جناحيه .

لقد كان معاوية من الذكاء بحيث أدرك مصيره مع « على » وقد أصبح خليفة للمسلمين .

من أجل هذا قرر أن يخوض معركة المصير . . مصيره هو . . لا مصير حق ضائع ، ولا مصير عدالة مغموطة ، ولا مصير دمٍ مطلول . . !

ومرة ثالثة ، يغفر الله لمعاوية ، فما كان ينبغى له أن يستخفَّ بمصاير الإسلام وبمقاديره إلى هذا المدى ، وإلى تلك الغاية . .

* * *

قلت لكم : إننا نؤرخ للعظمة الإنسانية فى نماذجها الباهرة .

وها أنتم أولاء تشاهدون عظمة « على » فى غمرة ذلك الصراع .

رأيتموها من غير أن أقول لكم : انظروها . . ! !

ورأيتم نضاله النبيل والمستميت ليدرأ الخطر عن حياة ، كان يراها حياته . . وعن مصير ، كان يراه مصيره . .

فلنتابع رؤية بعض مشاهد عظمته ، إن لم نستطع متابعتها جميعاً .

* * *

لقد كان يعرف حقيقة دوافع معاوية وحوافزه . . ولقد وصف هُتافه بدم عثمان وصفاً بليغاً وجامعاً فقال :

[كلمةُ حَقٍّ ، أُريدَ بها باطل] .

ومع علمه بتلك الدوافع المريبة ، لم يألُ جُهداً فى تجنيب المسلمين ويلات الحرب الأهلية ، فرضى وهو يعلم حقيقة دوافع معاوية أن يناقشه ويجرى معه حواراً طويلاً لعلّه يثوب ويرجع .

أرسل إليه ينبئه أن دم عثمان لن يذهب هدراً ، وسيتم القصاص الذى تفرضه الشريعة فى وقته المعلوم . .

ذلك لأن مقتل الخليفة ، لم يتمثل فى تسلُّل اثنين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، حيث اغتالوه خفية وهربوا . . بل وقع الاعتداء على حياته وسط ثورة مُسلحة اشترك فيها عشرة آلاف ظلوا محتلين المدينة ومحاصريها أربعة أشهر ، لم يستطع معاوية خلالها أن يُرسل من جيشه الكبير المنظم فرقة أو فرقتين لتزجر الثوار ، وتنقذ الخليفة .

وهذه الآلاف العشرة من الثوار لا يزالون يحملون السلاح .

فكيف يقدر « الإمام » أن يمسك بهؤلاء جميعاً ليحاكمهم . . ومتى ؟ فى تلك الظروف التى مكنت للفوضى وللدمار شرَّ تمكين .

فهلاَّ أعطاه معاوية الفرصة ، فبايعه ووقف إلى جانبه بجيشه اللَّجب ليتمكن من انتزاع القتلة الحقيقيين من بين هذه الآلاف العشرة الذين كانوا يحمونهم ويمنعونهم ؟ !

لو فعل « معاوية » ذلك . . ثم قصَّر الإمام وأغمض عن«القتلة عينيه ، لأدان ساعتئذ نفسه ، ولأدانه المسلمون . .

لكن معاوية ، لأمرٍ فى نفسه ، راح يرفض كل محاولة للتفاهم والصلح ، معلقاً على ذلك على تسليم قتلة « عثمان » . . وهو يعلم نبأ تلك الواقعة المشهورة . . عندما توسط بعض أهل الخير عند على ، لتسليم قتلة عثمان ، وبينما هم يتفاوضون معه إذا عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المكان الذى كان الحديث يجرى فيه بين الإمام والوُسطاء .

وإذا هذه الآلاف العشرة تزلزل الأفق بصياحها (كلنا قتلة عثمان) ! !

عشرة آلاف - سيوفهم بأيديهم ، وحناجرهم تدمدم (كلنا قتلة عثمان) .

ثم يقول معاوية للإمام : لا صلح إلا بعد أن تسلمنى قتلة عثمان ! !

ولماذا يتسلَّم هو قتلة عثمان ؟

أهو وَلِىُّ الدم . . ؟ كلا ، فأبناء عثمان أحق منه بهذه الولاية ؟

وحتى لو كان ولىَّ الدم ، أيظن نفسه لا يزال يعيش فى النظام القَبَلى ، يُقتل القتيل ، فتأخذ قبيلته الثأر أو الدية . . ؟

أَوَ لا يعلم - أمير الشام - أنه يعيش فى دولة عظمى ، وهى وحدها المسئولة عن فرض كلمة القانون . . ؟

الواضح أن « معاوية » بصياحه ذاك لم يكن يريد سوى إحراج الإمام وتأليب الثوار عليه .·.

لم يَكفِهِ منهم أنهم قتلة عثمان . . فحاول أن يجعل منهم قتلة « على » أيضاً . . ! !

* * *

ولكن الرجل العظيم « عليًّا » سيظل يتصرف وفق فضائله . . وهاهو ذا

ينشد السلام مرة أخرى ؛ بل مرات ومرات .

أرسل إلى معاوية « جرير بن عبد الله » بكتاب منه .

وسافر « جرير » إلى الشام ، واجتمع بمعاوية ، وبعض أصحابه حوله ، سأله معاوية : ما وراءك ؟

فقال جرير :

[لقد اجتمع لعلى أهل الحَرَمين
- مكة والمدينة -- وأهل المِصْرَين
– البصرة والكوفة – وأهل الحجاز
واهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل
عمان ، وأهل البحرين واليمامة . .
« ولم يبق إلا أهل هذه الحصون
التى أنت فيها - الشام .
« لو سال عليها سيل من أوديته
لأغرقها . .
« وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك
ويهديك] . .

ودفع إليه كتاب الإمام ، فانظروا ماذا قال فى كتابه الرجل الذى ينشد السلام بكل طاقته وعزمه .

بسم الله الرحمن الرحيم

[أما بعد ، فإن بيعتى بالمدينة ،
لَزِمتْك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى

القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان فلم يكن للشاهد أن يختـــار ، ولا للغائب أن يَرُدّ . . وإنما الشورَى للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل فسمَّوه إماماً ، كان ذلك لله رضا .

« فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن ، أو رغبة ، ردُّوه إلى ما خرج منه ، فإن أَبَى .قاتلوه على اتِّباعه غيرَ سبيل المؤمنين .

« وإن طلحة والزبير بايَعانى ، ثم نقضا بَيْعتى ، وكان نَقْضُها كردِّهما فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله . . فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإنَّ أَحَبَّ الأمور إلىَّ فيك العافية ! !

« إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك .

« وقد أكثرتَ فى قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكِم

القوم إلىَّ أحمِلْك وإياهم كتاب الله .
أما تلك التى تريدها فخدعة الصبي
عن اللبن .. ! !
« ولَعمرى ، لئن نظرتَ بعقلك
دون هواك لتجدنِّى أبرأ النـــاس من
دم عثمان ..
« واعلم أنك من الطُّلَقاء الذين
لا يتبَّوءُون الخلافة ، ولا تُعرضَ
فيهم الشورَى .
« وقد أرسلتُ إليك وإلى مَن قِبلك
جرير بن عبد الله ، وهو من أهل
الإيمان والهجرة ، فبايع .. ولا قوة
إلا بالله] ! !

* * *

هذا هو كتاب الإمام ، كما ينقله لنا نصر بن مُزاحم فى كتابه « وقعة صِفِّين » .

فهل ثمةَ منطق أعدل ، وأمثل من هذا المنطق ..

لننظر قوله لمعاوية ؟

[إنَّ أحبَّ الأمور إلىَّ فيك العافية]

---

(١) الطلقاء هم كفار قريش الذين خلى رسول الله سبيلهم يوم فتح مكة قائلاً لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ثم أسلموا يومها ، وبعدها .

ولننظر قوله له :

[وأما قتلةُ عثمان ، فادخل فيما دخل
فيه المسلمون – أى البيعة للإمام –
ثم حاكم القوم إلىَّ ، أحملك وإياهم
على كتاب الله] . . !

إن معاوية برغم تمرده ، ونكوصه عن البيعة ، وتأليبه الناس على الخليفة ، ودعوتهم لحربه .

معاوية ، برغم هذا كله ، يعرض عليه الإمام أن يكون « المدعى العام » فى قضية عثمان . . ! !

أفورَاء ذلك نَصَفَةٌ ومَعْدَلَة . . ؟

أَو بعد ذلك تنازُل وتسامح . . ؟

لكن « معاوية » كان قد بيَّت الأمر مع معاونيه ، فكان رده على هذه الرسالة إمعاناً فى اتهام الخليفة بقتل عثمان ، وإيغالاً فى جمع الحشود المسلحة من أهل الشام تحت قميص عثمان . . !

كان بالمدينة جماعة من المهاجرين والأنصار آثروا الحياد . . وكان على رأسهم نفر من أئمة الصحابة أمثال عبد الله بن عمر . . وأسامة ابن زيد . . وسعد بن أبى وقاص . . ومحمد بن مسلمة . .

وعندما هَمَّ الإمام بالخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل التى إليها دعاهم للخروج معه . . فاعتذروا . . وكانت حجتهم أن الله أمرهم بقتال المشركين ، أما والقتال اليوم سيدور بين مُسلم ومسلم ، فإنهم فيه لا يشتركون .

obeikandi.com

وآلم هذا الموقف بعض أصحاب « على » فطلبوا منه أن يحملهم على الخروج معه بالقوة . لكنه أبى واحترم حيادهم وقال :

[دَعوهم ، وما اختاروا لأنفسهم] .

لم يكن امتناع هؤلاء الصفوة عن غَمْطٍ لحق « عَلِيّ » أو لفضله . . وإنما كان للسبب الذى قدمنا .

قال سعد بن أبى وقاص :

[أعطِنى سيفاً إن ضربتُ به المشرك
قَطعَ ، وإن ضربتُ به المسلم
رجعَ ، وأنا أُقاتل معك] . .

وقال عبد الله بن عمر :

[إنى عاهدت ربى ألا أقاتل من
يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً
رسول الله] .

وقال أسامة بن زيد :

[والله يا أمير المؤمنين ، لو كُنتَ
فى شِدْق الأسد ، لأحببتُ أن أكون
معك فيه ، ولكنى لا أحب أن ألقى
بسيفى مسلماً أبداً] . .

احترم الخليفة حياد إخوانه هؤلاء ، ولم يُحلْ بينهم وبين ما اختاروه لأنفسهم من مَسْلك ومُقام .

لكن « معاوية » فى الشام ، لم يكفه ما أعدَّ هناك من قوة ، فطمع

فى أن يكسب هؤلاء إلى صَفِّه ، وحسب أنهم قعدوا عن نصرة « الإمام » استرابةً منهم فى حقه أو فى سلامة قصده .

فأرسل إليهم رسله يغريهم بالوقوف بجانبه ، ويقول لهم : أنتم أحق بالخلافة من على . . ! !

أرسل إلى سعد ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مَسلمة .

وسرعان ما تلقى « معاوية » منهم لطمات جعلته يندم على ما فعل .

أما « عبد الله بن عمر » فقد أرسل إليه يقول :

[أما بعد ، فإن الرأى الذى أطمعكَ فيَّ ، هو الذى صَيَّرك إلى ما صيَّرك إليـه . .

« إنى ما تخلَّفت عن – على – لطعنٍ منى عليه . فَلَعَمرى ما أنا كعَلىٍّ فى الإيمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ونِكايَتِه بالمشركين . .

« ولكن حدث أمر لم يكن لى فيه من رسول الله عهد ، ففزعتُ فيه إلى الحيدة ، فاكففْ عنا نفسك] !

وأما سعد بن أبى وقاص » فقد ردَّ عليه قائلاً :

[. . وإن هـذا أَمر قد كرِهْنـا أَوَّله ، وكَرِهْنـا آخره . . وأمـا

طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان
خيراً لهما – واللهُ يغفر لأم المؤمنين
ما أتَتْ . . وما كنت لأقاتل عليًّا ،
وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول له أنت منى بمنزلة هارون
من موسى ، غير أنه لا نبي بعدى] .

وأما « محمد بن مسلمة » فقد كتب إلى معاوية يقول :

[. . وأما أنت ، فلَعمْرِى ما طلبتَ
إلا الدنيا ، ولا اتَّبعْتَ إلا الهوى .
فإن تَنْصُرْ عثمان مَيتــاً ، فقــد
خذَلتَهُ حيًّا . .
« ولئن كنتُ أبصرتُ فى الأمــر
خلاف ما تريد ، فما خرجت بذلك
من نعمة ، ولا صرْتُ إلى شك . .
« وإنى لأدْرَى بالصواب منك] . ! !

* * *

كان من الخير لمعاوية أن يفيق على أُصوات هؤلاء الثلاثة الكبار من أصحاب رسول الله . . ولكنه أخفى رسائلهم هذه ومضى فى الطريق الذى اختار ، والذى رفع فوق ناصيته قميص عثمان ! !

* * *

أدرك « الإمام على » أن معاوية مَزْهوٌّ بجيشه ، وبقوة أهل الشام

الملتفين حوله ، كما أنه لا يقدرُ قوة الإمام قدْرَها .

ورأى الإمام أنه إذا أنزل بمعاوية بعض بأسه ، وأراه بعض قوته ، فقد يحمله ذلك على الطاعة . .

ومن ثمَّ رأى أن يزحف إلى الشام ، ويُصبِّح معاوية بصيحة عابرة ، لكنها زاجرة . . ثم يستأنف الإمام بعدها دعوته إلى الصلح وإلى السلام . .

* * *

غادر الإمام معسكر النُّخَيْلة بالكوفة . . وغادر معاوية الشام والتقى الجمعان فى « صفِّين » .

وتُفاجئنا الساعات الأولى لهذا اللقاء بمشهد باهر من مشاهد « ابن أبى طالب » . . مشاهد عظمة نفسه وبطولة أخلاقه .

فعندما بلغ معاوية وجيشه « صِفِّين » شرقىَّ الفرات ، بادروا إلى الطريق الوحيد الذى يفضى إلى نهر الفرات فاحتلوه ، وأقاموا عليه عشرة آلاف حارس ، ليمنعوا جيش « الإمام » من الوصول إلى الماء ! ! ! !

ولما وصل « الإمام » بجيشه وعسكروا فى ذات المكان ، انطلق سقَّاءُوهم ليجيئوا لهم بالماء فوجدوا جيش الشام قد احتل الطريق كله .

وأرسل الإمام لمعاوية ، يذكره بشرف القتال . . ويدعوه أن يترك طريق الماء مفتوحاً أمام الظامئين . . لكن معاوية ومن أشاروا عليه رفضوا .

وقضى أصحاب « الإمام » يوماً وليلة بلا ماء . وجفَّت حلوقهم وأشرف الضعاف منهم على الموت .

وفى الصباح تحركت قوة من جيش أمير المؤمنين ، يقودها الأشعث ابن قيس ، والأشْتر ، فكنَست قوات معاوية كَنْساً من طريق الماء ، واحتلته كله . . وأصبح مفتوحاً أمام جيش الإمام ، ومغلقاً تماماً أمـــام جيش معاوية . . ! !

ولْنُصْغ لهذا الحوار الذى دار بين معاوية وعمرو بن العاص بعد طرد قواتهما عن طريق الماء :

عمرو : ما ظنك بالقوم اليوم – يا معاوية – إن منعوك الماء كما منعتهم بالأمس . . ؟ !

معاوية : دع عنك ما كان – يا عمرو – ولكن أتظن عليًّا يصنعها . . ؟

عمرو : ما أظن « عليًّا » يَسْتحِلُّ منك ما استحلَلْتَ منه ؛ فإنه لم يأت لِيُظْمِئك ، بل جاء لغير ذلك .

* * *

حَسبُ أمير المؤمنين ذلك الحوار يجرى بين خصومه .

حسبُه ذلك الرأى فى رجولته ، وعظمته ورفْعَةِ مَسْلَكِهِ من الذين يتهمونه بدم عثمان ! !

ولقد كان أول أمر أصدره « الخليفة على » فور احتلال قواته طريق الماء ألا يُذاد عنه ذاهب ، ولا يمنع عنه شارب . . وهكذا لم يذق جيش معاوية حرقة الظمأ لحظة واحدة ، لأن « عليًّا » بعظمته وبرجولته كان هناك . . ! !

* * *

بعد هذه الزجرة الرادعة ، حاول الإمام أن يلوى زمام « معاوية » عن الحرب ، ويهيئ له فرصة كريمة للمصالحة ، فندب للقائه أربعة من رجاله توجهوا إلى معسكر معاوية ، وتحدثوا إليه قائلين له :

[إن صاحِبنا لمَنْ قد عرفْتَ وعرف المسلمون فضله ، ولا نظنه يخفى عليك « إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى عليه السلام ، ولن يُفاضِلوا بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف – عليًّا – فإننا والله ما رأينا رجلاً قط أعملَ بالتقوى . ولا أزهدَ فى الدنيا : ولا أجمعَ لخصال الخير كلها منه] . .

أفلا يلين قلب معاوية بعد هذا كله . . ؟

انظروا ماذا كان جوابه :

[إن صاحبكم قتَل خليفتنا ، وفرَّق جماعتنا ، وآوى ثأرنا وقتلَتنا . . « وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله . ونحن لا نردُّ ذلك عليه . فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به ، ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة] . .

عاد الوفد إلى الإمام ، يحملون إليه كلمات معاوية فتلقاها الإمام

فى أسّى . ثم تلا قول الله تعالى :

[فإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموْتَى ، ولا تُسْمِعُ
الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .
« ومَا أنْتَ بِهَـادِى الْعُمْىِ عَنْ
ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ
بآياتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ] .

وإذ كانوا يومئذ فى شهر المحرم ، وهو من الأشهر الحرُم التى لا يحلُّ فيها القتال ، فقد انتظر أمير المؤمنين حتى أهلَّ شهر صفر ، فاتخذ قراره بخوض القتال . .

وكان بعض المقاتلين معه يريد أن يدهَم جيش معاوية بقوات كثيرة تأخذهم على حين غفلة ، فأبى البطل ، والرجل .

وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر جماعة من أصحابه أن يقفوا على معسكر معاوية ، وينادوا بأن القتال غداً . .

ودعا « مرثد بن الحارث » وأمره أن يعلُو أقرب ربوة من معسكر معاوية ، ويسمعهم هذه الكلمات :

[يا أهل الشام . .
« إن أمير المؤمنين يقول لكم :
إنى قد استدَمْتُكم وأستأنيْتُ بكم
لتراجعوا الحق وتُثيبوا إليه ، واحتجَجْتُ
عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ،
فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تُجيبوا إلى حق

« وإنِّى قَدْ نَبَذْتُ إليكم على سواء ،
إن الله لا يُحب الخائنين] . ! !

أَبى أَن يأخذهم على غرَّة ، وأن يوجه إليهم ضربة خاطفة ، كانت ستوفر كثيراً من الوقت والجهد فى كسب المعركة .

أبى ذلك ، لأنه كان يرجو ويطمع فى السلام إلى آخر لحظة ، فهو لهذا يرجو ويطمع إذا آذنهم بقتال أن يثوبوا إلى الرشد ، ويرجعوا عن العصيان .

وأَباه أَيضاً ، لأن أَخلاقه ترفض هذا النوع من الغلب والنصر مهما يكن سريعاً وحاسماً .

ولسوف نراه يمارس الصراع كله مع معاوية على هذا النسق من الخُلق الرفيع .

لا يتخلَّى عن مُثله ولا عن دينه مهما تكن العواقب . .

ولم تكن جبهة خصومه مجتمعة ، بأقدر منه ذكاء وفطنة . لكنه رضى الله عنه ، رفض دائماً أن يضع الذكاء مكان الإخلاص والورَع .

ولقد أخبر وكان صادقاً ، بأنه إذا انتصر عليه معاوية ، فإنه لن ينتصر بمقدرته ولا بشجاعته ولا بذكائه . . إنما سينتصر بورَع الإمام نفسه . .

أجَلْ . . فإن ترفُّعه عن الوسائل التى يرفضها دينهُ وخلُقه ، هيّأ لمعاوية الكثير من أسباب انتصاره .

* * *

آذنهم « الإمام » بالقتال إذن ، على النحو الذى أسلفنا ، وعاد

يُعَبِّئ قواته ، وأصدر إليها توجيهاته فى القتال .

[لا تقاتلوا القوم حتى يبدءُوكم ،
فإنكم بحمد الله على حُجَّة . .
« وتركُكُم إياهم حتى يبدءُوكم
حُجةٌ أُخرى لكم عليهم . .
« فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم ، فلا تقتلوا
مُدْبراً ، ولا تجهزُوا على جريحٍ ،
ولا تكشفوا عورة ، ولا تُمثِّلوا
بقتيل . .
« فإذا وصلتم إلى رحالهم ، فلا تهتكوا
ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ،
ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . .
« ولا تقربوا النساء بأذى . وإن
شتمنكُم وَشتمنَ أمراءكم وصُلحاءكم ،
« واذكُروا اللهَ كَثِيراً لعلَّكُم تُفْلِحُون]

* * *

والْتقى الجيشان فى وقعة صِفِّين . ودارت المعارك ضارية مُثيرة وطالت واستطالت حتى عجّت الأرض بالدماء ، وغطتها جثث الضحايا .

وجزع الإمام لكثرة الضحايا . . وفى سبيل أن يحسم الأمر ، ويصون الدم ، تقدم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه ، ليخرج إليه فما خرج . فلما فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتاباً بعث به إليه :

[يا معاوية . .
« لِمِ تقتل الناس بيني وبينك ؟
ابْرُزْ إلىَّ ، فأيُّنا قتَل صاحبه تولّى
الأمر من بعده] . .

واستشار معاوية صديقه « عمرو » فقال له :

– لقد أنصفك الرجل فابرز إليه .

فأغضبته مشورة « عمرو » ووجد فيها إحدى مكايده للتخلص منه ، لأنه يعلم أن « عليًّا » ما بارز أحداً إلا صرعه ! !

ولكي يبعد « عمرو » هذا الخاطر المزعج عن معاوية ، قال له :

– إنى خارج إلى « على » غداً ، فمُبارِزُه .

وفى اليوم التالى ، وقد تأهب كِلاَ الجيشين لاستئناف القتال ، وقف « عمرو » ونادى « الإمام عليًّا » لمبارزته . . وخرج الإمام إليه ، وتبارزا وهما فوق فرسيهما ، وبينما الإمام يهوى بسيفه على « عمرو » ليجلِّله به قذف بنفسه على الأرض ، وتمدَّد عليها فى استسلام ، وفزع ، وضراعة . . فألقى عليه « الإمام » نظرة الظافر الكريم ، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً . .

* * *

ولو حفظ « عمرو » للإمام هذا الصنيع الجليل ، وتخلّى عن شغفه البالغ بالإمارة ، لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى . . لكنه لم يفعل ، وحين أنهك القتال جيش الشام ، وبات النصر مؤكداً لجيش الإمام . . وصار واضحاً أنه لم يبق سوى ساعة أو بعض ساعة ، ثم ينتهى إلى الأبد

تمرد معـاوية ومن معه . . عندئذ ، ومعاوية يقرع سِنَّ نادم ، ويُحدِّق فى وجه « عمرو » يستجديه الرأى والحيلة ، فتح « ابن العاص » جعبته ليخرج منها جديداً . .

قال لمعاوية :

[لقد أعددتُ بحيلتى أمراً ادَّخرتُه
لهذا اليوم .
« ترفع المصاحف . وتدعو إلى تحكيم
القرآن . .
« فإن قبلوا التحكيم اختلفوا . : وإن
ردوه اختلفوا أيضاً] . !

أجل . . فإن التحكيم بهذه الطريقة وفى تلك الظروف ، لا يثير خلافاً فى صفوف المنهزمين ، لأنه – على الأقل – يعطيهم فرصة لجمع صفوفهم وبناء قوتهم من جديد . . أما بين المنتصرين الذين لا يفصل بينهم وبين النصر سوى ساعة زمان ، فإنه يثير اختلافاً كبيراً . .

وهذا هو الذى حدث تماماً . .

فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف ، وتسير بها صَوبْ معسكر العراق ، حتى نَشب الخلاف .

لقد أدرك الإمام من فوره أنها خُدعة ، فحذر قومه منها . . لكنّ – الأشعث بن قيس – ونفراً من القرَّاء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله :

قال الإمام :

olibkandi.com

[أنا أَحق مَن يجيب إلى كتاب الله ،
ولكنى أعرف بهم منكم . .
« إنها كلمة حق يُراد بها باطل . .
وإنى ما قاتلتُهم إلا ليدينوا بحكم
القرآن ، فكيف أرفُض اليوم حكمه . . ؟
« إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم
يريدون حكم القرآن .
« إنما هى الخديعة ، والوهن والمكيدة
« فأعيرونى سواعدكم ساعة واحدة
فقد بلغ الحقُّ مقْطعَه] ! !

لكن المعارضة بلغت أوْجها فى سرعة مُريبة ، وتولَّى « الأشعث » كِبْرَها . .

كان « الأشْتر » بكتيبته وبقواته هناك على مقربة من معسكر الشام المتداعى . . وكان يستعد للصيحة الأخيرة عليه ، ولم يكن يفصل بينه وبينهم سوى [عَدْوَة فرَس] على حد تعبيره . . فطلب الأشعث ومَن معه من الإمام أن يُرسل لاستدعائه . . وأرسل الإمام يستدعيه ، فجنَّ جنون « الأشتر » وقال للرسول :

[ارجع وأنبئهم أنها لحظات ، وينتهى كل شىء ، فكيف أعود] ؟

ولم يكد يسمع أنصار التحكيم ردَّ « الأشتر » هذا حتى هدّدوا بعملٍ مُسلَّح ضد الإمام نفسه إذا لم يعد « الأشتر » على الفور ! !

ماذا دهى هؤلاء فجأة . . ؟

وماذا دهى « الأشعث » خاصة ؟

هل أنهكتْه الحرب . . ؟

هل كان يعمل لحساب نفسه ، أم لحساب غيره ، وَفْق أغراضٍ بعيدة عن القضية التى يقاتل دُونها الإمام . . ؟

هل كان ينفس على « الأشتر » ويُضمر له فى نفسه الحسد ، فعزَّ عليه أن يكون بطل الضربة الأخيرة ، وطليعة الفتح ، وبشير النصر ؟

أو تُراه كان يرى أن الحرب لن تنتهى بهذه السرعة المظنونة . وأن الصلح المعروض فرصة لا ينبغى أن تُفلت . ؟ ؟

بعض ذلك جائز . . وكل ذلك جائز . . وعلى أية حال فقد فرضوا رأيهم بقبول التحكيم ، وعاد الأشتر تاركاً أبواب معسكر الشام التى كان يقف عليها متهيأ لإنزال الضربة الأخيرة بمن وراءها . . عاد يتضرَّم غيظاً وثورة ! !

* * *

كُتبت وثيقة التحكيم ، وأعلن معاوية أن ممثله فى التحكيم هو « عمرو بن العاص » . . ! !

فمن يُمثل جبهة الإمام . . ؟

هنا برز « الأشعث » وجماعة أخرى يقترحون « أبا موسى الأشعرى » وعارض الإمام . . مقترحاً « عبدالله بن عباس » .

لم يكن دين أبى موسى موضع شكٍّ لدَى « أمير المؤمنين على » برغم مآخذ يأخذها على موقفه من ذلك النزاع بينه وبين معاوية . . إنما كان الموقف فى تقدير الإمام يتطلب مندوباً يكون فى دهائه وسعة حيلته ، ويقظته ،

كفئاً للداهية عمرو بن العاص .

و « ابنُ عباس » كما يعرفه الناس جميعاً ، هو ذلك الكفء المطلوب .

إنه مع وَرَعه وتُقاه أبعد مَنالاً ، وأبعـدُ غَوْراً من كل ما لدى « ابن العاص » من حيلة ودهاء .

لكن الأشعث وجماعته أصرُّوا على « أبى موسى الأشعرى » . .

وحتى يتجنب « الإمام » وقوع الفتنة فى صفوفه – قبل رأيهم اليوم فى أمر المندوب ، كما قبله أمس فى أمر التحكيم . . ! !

* * *

وسارت الأمور سيرها المعروف . . فقد اتفق أبو موسى وعمرو بعد حوار طويل بينهما على أن يخلعا معاً ، الإمام ، ومعاوية ، ويعود الأمر شورى بين المسلمين يختارون هم إمامهم وخليفتهم .

ودعا « عمرو » أبا موسى لكى يبدأ الحديث . .

وبدأ « أبو موسى » وخلع عليًّا ، ومعاوية . .

ثم تلاه « عمرو » فقال : (إن أبا موسى خلع صاحبه كما رأيتم ، وإنى أخلعه كما خلَعه – وأُثبِتُ معاوية ، فهو أُمير المؤمنين والمطالب بدم عثمان فبايعوه) . . ! ! !

وثار « أبو موسى » لهذه الخدعة المكشوفة ، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة ، ليعود القتال ، من جديد ! !

---

(١) راجع للمؤلف : أبو موسى الأشعرى فى كتاب « رجال حول الرسول ».

ولكن ضدَّ مَن سيعود . . ؟

* * *

إن عظمة هذا الرجل – على بن أبى طالب – لعظمة فريدة . . لكأنما كان يُحركه من أعماقه ولعٌ شديد بأن يذهب عن الحياة – يوم يذهب – شهيد مُثُله ، ومبادئه ، وإيمانه . . شهيد استقامة المسلك ، واستقامة القصد ، واستقامة الضمير .

لقد واتته الفرصة لِدَحْض خدعة التحكيم قبل اجتماع الحكمين . .

وذلك حين راح الأشعث بن قيس . . يمرُّ على جماعات الجيش المبثوثة هناك تالياً عليها وثيقة التحكيم ، فإذا جماعة منها تلقاه بصياح النكير . . قائلة : [لقد أخطأنا بقبولنا التحكيم . وها نحن نرجع عن الخطأ ، لا حكم إلا لله] .

ولو تقدم الإمام فتبنَّى – مجرد التبنِّى – هذه المعارضة الجديدة للتحكيم ، لأمكن تغيير الاتجاه ، ولكنه قال عندما بلغه النبأ . .

[. . أوَ بَعدَ أن أعطينا العهد
والميثاق . . ؟ !]

لك الله أبا الحسن ! !

أتُراك قد كتب عليك أن تقاتل بشرف ، فى معركة كان الشرف عنها غائباً ، وفيها غريباً . . ؟ !

رفض أن ينقض ميثاقاً أُعطاه . . والغدر يحيط به من كل جانب . .

وجاءت خاتمة التحكيم كما أراد لها وكما تنبأ بها عمرو بن العاص . .

فقد مزَّق الخلاف أصحاب الإمام . وفى سرعة غريبة أيضاً تحولوا

إلى شيع يقاتل بعضها بعضاً . . بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهــه بألأم عصيــان ! !

* * *

وقف الإمام وسط البقية من أصحابه الذين لم يفتنوا عن الولاء للحق .

لم يكن لديه وقت للعتاب ، ولا لاجترار الندم . إنما كان الوقت كله – إن كان هناك وقت – والفرصة كلها . . إن كان ثمة فرصة . . لتعبئة أصحابه والسير إلى الشام .

مع مَنْ تمضى إلى الشام يا أمير المؤمنين . . ؟

ولماذا . . ؟

مع المؤمنين بالحق وإن قَلُّوا . . لإتمام الجهاد الذى بدأه فى سبيل الحق ذاته . !

إنه صارم فى تحمل مسئولياته . . وإنه حين خاض القتال الذى فرضه عليه الجانب الآخر لم يَخضْهُ لينتصر فى حرب ، أو لِيدْعَمَ مكانه فى الخلافة ، إنما خاضه لأن مسئولياته فرضت عليه أن يخوضه . . ولما فرض أصحابه عليه قبول التحكيم ، كفّ عن القتال . . ولما فشل التحكيم وتحول إلى خدعة وضلالة ، فإن مسئولياته تفرض عليه القتال من جديد .

صحيح أن الموقف تغير تغيراً شــاملاً ، ففريق كبير من أصحابه انقلب عليه وحمل السيف ضده بحجة أنه قبل التحكيم . . ؟ التحكيم الذى فرضوه هم عليه فرضاً . . ! !

وفريق آخر ، اعتزل وتقاعس عن القتال . .

لكن ذلك كله وأضعافه معه لا يهن من عزم الإمام . . ذلك لأنه يعتقد أنه يقاتل فى معركة حق .

وما كانت معارك الحق قط معارك كثرة وأعداد . .

إن عليه أن يمضى مع مسئولياته ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وهكذا عبأ قواته ، وبدأ مسيرته إلى الشام ، بيد أنه لم يكد يتحرك مسافراً حتى جاءته الأنباء مثيرة مُزعجة . .

أنباء الخوارج الذين انطلقوا هائمين فى البلاد والقرى يقتلون كل مَن يُخالفهم الرأى .

إنهم يلقون الواحد من المسلمين فيسألونه :

– ألم يكن قبول التحكيم كفراً . . ؟

– ألم يأثم « على » بقبول التحكيم . . ؟

– ألسنا فى حل من طاعته وبيعته حتى يقر بإثمه ويتوب منه . . ؟

فإذا أجاب المسئول بـ « نعم » تركوه ينجو . . وإن أجاب بـ « لا » سفكوا دمه وأزهقوا حياته . . ! !

جاءت أخبارهم إلى الإمام . وأرسل الناس من كل مكان يستغيثون به . ويتوسلون إليه ألا يذهب إلى الشام قبل أن يؤمنهم من هذا الوباء الماحق الذى استشرى فجأة وبغير حساب . . ! !

أيعرف الناس فى التاريخ محنة مرَّت ببطل ، مثل هذه المحنة . .

لكن أبو حَسنٍ لها . . ولن يتخلَّى عن واجبه وإن بُدلت الأرض غير الأرض . وإن تحوَّلت رمال الصحراء إلى جيوش تقاتله ، وإن

تحوَّلت بحار الأرض إلى لهب ، ونار . . ! !

لتذهب عنه كل الألقاب والأوصاف – الخليفة . . والإمام . . ، الداهية . . والمنتصر . . ولْيبْقَ له ومعه لقب واحد ووصف واحد هو : المؤمن . . ! !

إن الحياة فى يقينه قضية إيمان . فمن خسر إيمانه خسر حياته ، وإن عاش فيها ألف عام . . ومَنْ ربح إيمانه ربح حياته ، وإن عاش فيها بضعة أعوام . . ! !

وهو اليوم – وليس حوله سوى المهالك والأخطار – غير نادم على خطوة خطاها .

لقد اقترب منه ابنه « الحسَن » رضى الله عنه ، يقول له فى نبرة عتـاب :

[يا أبى . .

* « أشرْتُ عليك حين حُوصرَ عثمان
أن تخرج من المدينة :
فإن قُتِل قُتِل وأنت غائب عنها .
* « وأشرْتُ عليك حين قُتل عثمان
وراح الناس إليك وغَدَوْا ، وسألوك
أن تقوم بالأمر ألا تقبله حتى
تأتيك البيعة من جميع الآفاق . .
* « وأشرتُ عليك حين بلغك خروج
الزبير وطلحة بأم المؤمنين عائشة

إلى البصرة أن ترجع إلى المدينة
وتقيم فى بيتك . .
« فلم تقبل رأيى فى شىء من
ذلك] . .

* * *

كان الحسن قلقاً من أجل أبيه . . فراح يراجع مع الماضى الحساب . .

ولكن « أَباه » كان مطمئن النفس ، قرير العين بما كان وبما سيكون ، لأنه لم يكن فى رحلة حياته كلها عبد هوًى ، ولا طالب مَجد . بل كان جنديًّا فى معركة الولاء للحق . .

هنالك أجاب ابنه « الحسن » قائلاً :

* « أمَّا خروجى حين حُوصِر عثمان ، فما كان ذلك ممكناً ، فقد كان الناس أحاطوا بى ، كما أَحاطوا بعثمان . .
* « وأما انتظارى طاعةَ جميع الناس من جميع الآفاق ، فإن البيعة لا تكون إلا لمن حَضَر الحرَمين من المهاجرين والأنصار ، فإذا رضوا وبايعوا حقَّ على جميع المسلمين الرضا والبيعة . .

* « وأما رجوعى إلى بيتى والقعود فيه
فإننى لو قبلت لكان ذلك غدراً
بالأمة وخيانة لها . . »

هذه هى مواقفه – واضحة مسْفرة . .
وهذه هى بواعثه – نظيفة طاهرة . .
لا يأْسَى على وقفته مع حق ، قصَّرت عن إدراكه الأسباب . .
ولا يَجزع من قَدَرٍ ، سبقَ به الكتاب . . ! !

* * *

وخِلاَل حياته بصفة عامة . .

ثم خلال هذا الصراع وهذه الفِتن ، بصفة خاصة ، حرص البطل دوماً على تحرى الصواب ، والسير تحت راية الحق .

أجل . . الصَّواب كان هِوايته ، وكان طريقه . .

الصَّواب جميعُه – صواب الفكر ، وصواب الشعور ، وصواب الإرادة ، وصواب العمل .

وحتى إذا أخطأ اجتهاده فى أمر ما ، فإن خطأه هذا لا يجىء انعكاساً لرغبة فى الاستعلاء على الحق أو تحديه . . ولا لتقصير منه فى نُشدان الصواب وتحريه . .

إنما يكون بسبب مبالغته فى الولاء للصواب ، وللحق . . وبسبب مغالبته الظروف العسيرة المظلمة التى كتب عليه أن يستردَّ من خِلالها حقيقة الإسلام ، ووحدة المسلمين . .